

نحن .. وابعادنا الأربعة

دكتور جمال حمدان

مكتبة مديبولي



دكتور جمال حمدان

نحن ...

وأبعادنا الأربعة

دكتور جمال حمدان

نحن ...

وأبعادنا الأربعة

مكتبة مديولى

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة في تعدد الأبعاد
٧	الفصل الأول : البعد الأسوي
٤١	الفصل الثاني : البعد الأفريقي
٦٩	الفصل الثالث : البعد الذيلي
٩١	الفصل الرابع : البعد المتوسطي
١٢٧	الفصل الخامس : تفاعل الأبعاد
١٥٣	الفصل السادس : بعض النظائر الجغرافية
١٦٧	الفصل السابع : والخلاصة النهائية ؟

* * *

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

مقدمة

مقدمة في تعدد الأبعاد (١)

تعدد الأبعاد والجوانب في كيان مصر وتوجهها نتيجة منطقية .
منتظرة ومتوقعة ، للموقع البؤري في قلب مثلث القارات . فمصر حلقة
وصل بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته ، بمثل ما أن
السودان حلقة وصل بين العالم العربى وإفريقيا المدارية . أو هي على
الجملة حلقة وصل بين إفريقيا وأوربا . شأنها في هذا شأن جزيرة
المغرب على الجانب المناظر من القارات . وهذا من ناحية الجغرافية
والإقليمية العامة .

(١) انظر حمدان ، شخصية مصر ، الجزء الرابع ، الصفحات ٣٩٩ - ٤٧٩ ،
القاهرة ١٩٨٢ .

ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة فلقد كانت حضارة مصر العربية . التي تزرى بحضارة أوربا الوسيطة شمالا ، تنعكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة إلى ما يذكر بحضارة العالم الزنجي جنوبا بعجزه وتواكله ونمميته ورقه . أى أنها كانت تتأرجح إلى حد ما بين حضارة رأسها المتوسطى وحضارة جذورها الديلوتية أو بين انتماءاتها الأوربية وانتماءاتها الافريقية . على أنها أكثر من ذلك كانت حلقة الوصل بين الشرق والغرب وبين المشرق والمغرب . والممر الطبيعى الأول بين آسيا وإفريقيا .

معنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الافريقى والبعد الآسيوى . وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة . فالبعد الافريقى أمدنا بالحياة - بالماء والسكان ، ولكن البعد الآسيوى أمدنا بالحضارة - بالثقافة والدين منذ العرب . وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر : مع السودان أولا ثم سوريا بعد ذلك .
هكذا تتحدد لنا فى المحصلة العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر :
الآسيوى والافريقى على مستوى القارات ، والديلى والمتوسطى على

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

المستوى الاقليمي . غير أن من الواضح أن هذه الأبعاد تتداخل في بعضها البعض غالباً كما يفعل النيلى والافريقى . هذا فضلاً عن أن الكل يتداخل مع الاطار العربى الكبير . بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى وإنما هو خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته . هو الجسم حيث الأبعاد هى الأطراف . هو الوجه وهى الوجهة . هو الهوية وهى : هوائيات ، الارسال والاستقبال . بوضوح أكثر : العروبة وجود ، ولكن الأبعاد توجهه ، إن تكن الأبعاد هى اتجاهات البوصلة ، فإن الأساس العربى هو جسم البوصلة ذاته .

والواقع أننا فى دراسة أبعادنا الاقليمية كالبعد الآسيوى والافريقى والدبلى والمتوسطى ، كما فى دراسة دوائرننا المكانية كالدائرة العربية والاسلامية والافريقية . يحسن دائماً أن نميز موضوعياً ومنهجياً بين دوائر انتماء ودوائر علاقات . وفى كل الحالات فإن العروبة وحدها هى دائرة الانتماء . وكل ما عداها فدوائر علاقات .

والحقيقة المركزية بعد هذا أن الانتماء العربى هو وحده أيضاً : جيروسكوب مصر ، الذى يحفظ عليها توازنها واستقرارها بين ضغوط ، وشدود ، تلك الأبعاد بالدقة . فلقد كان لكل منها ثقله ووزنه

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

الذى يجذب مصر فى اتجاهه ويكون أو يلون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر إلى آخر . ولذا فإن من الأهمية بمكان أن نقيم كل بعد منها ومدى إسهامه فى تكوين الشخصية المصرية وتوازانات التفاعل المتطور بينها جميعا كالدراسة فى العلائق المكانية والعلاقات التاريخية والمتوسعة والمتغيرة عبر العصور .

الفصل الأول البعد الآسيوي

من بين البعدين القاريين . يذهب الثقل والخطر دائما وأساسا للبعد الآسيوي الذي يأتي أيضا مبكرا باستمرار . بينما يغلب أن يتأخر الأفريقي زمنيا . فرغم أن مصر في إفريقيا موقعا ، فقد كانت أبدا في آسيا وقعا . هي في إفريقيا جغرافيا ولكنها في آسيا بالتاريخ . في إفريقيا طبيعيا ولكنها بشريا في آسيا أكثر .

ولقد كان هيجل . وقبل راتزل الذي ضغط على الحقيقة كثيرا . ومن أوائل من وضعوا أيديهم عليها . ففي « فلسفة التاريخ » تعرف هيجل في إفريقيا على ثلاث مناطق كبرى : الأول جنوب الصحراء وهي إفريقيا بالمعنى الصحيح . ثم شمال غرب إفريقيا واعتبرها جزءا من أوربا . ثم أخيرا وادي النيل الذي ألحقه بالنظم اللهربية الآسيوية الكبرى . وعلى الأقل . فلقد كان الاغريق أحيانا يعتبرون الدلتا جزءا

من آسيا تاركين الصعيد في إفريقيا . كذلك كان العرب تربط الدلتا بالشام . والصعيد بالحجاز . يقول الكندي مثلا في : فضائل مصر ، : صعيدها أرض حجازية ، حره كحر الحجاز ، وأسفل أرضها (أى الدلتا) شامى ، يمطر مطر الشام ، .

وعلى الجملة ، وفي كل الأحوال ، ففي علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة أسيوية أكثر منها . أو بقدر ما هى - إفريقية (1) . وحتى دون أن ننسى المؤثرات الأسيوية فى القرن الإفريقى وشرق إفريقيا ، يمكن أن نقرر بسهولة أن مصر هى أكثر إفريقيا أسيوية . والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال عموما ، والشمال الشرقى خصوصا . لماذا ؟

الضوابط الموجهة

إن نظرة إلى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة . فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجلح بتحيز واضح نحو الشرق ، قل تقريبا بنسبة الثلث - الثلثين . ولو كان النيل يجرى أكثر

(1) W . Fitzgerald, Africa, 1950, P. 418 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

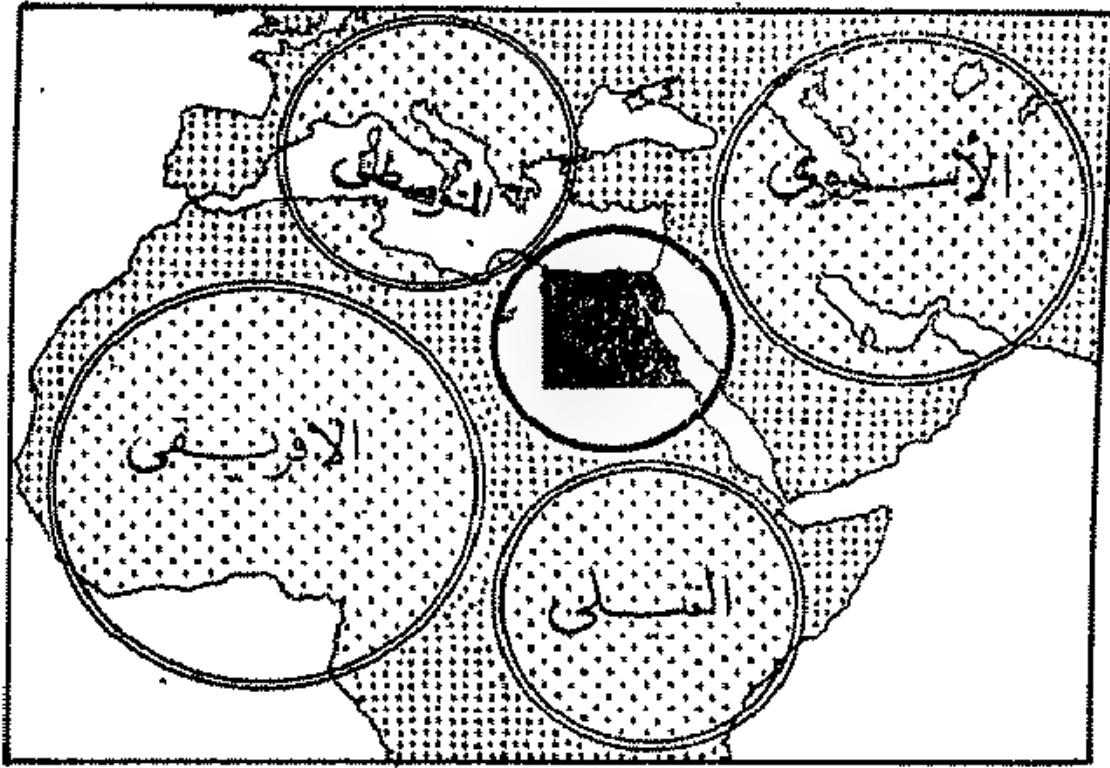
غربية لتغيرت بلا شك اتجاهات التاريخ ، على الأقل في جزئياتها . خذ مثلا الفراغ العمراني الفاصل بين أطراف المعمور المصرى وأطراف المعمور السورى من ناحية . وبينها وبين أطراف المعمور الليبي من ناحية أخرى . إن المسافة بين بورسعيد وغزة تناهز كما يطير الطائرة ٢٥٠ كم ، فى مقابل ٨٠٠ كم ، أى ثلاثة الأمثال ، بين الاسكندرية ومنتصف الجبل الأخضر . والدلالة واضحة : إن أقرب جار لمصر إنما يقع فى آسيا (١) .

ولا شك بعد هذا أيضا أن الصحراء الغربية أصعب اختراقا وأقل انفتاحا Qccessibility من الصحراء الشرقية . حقا إن الأخيرة أشد وعورة . جبلية مضروسة ، فى حين أن الأولى هضبية ممهدة نوعا ، إلا أن ما أصلحته التضاريس نسبيا أفسدته القحولة المطلقة تماما . أما الصحراء الشرقية فأكثر ماء وحياة . وحتى تضاريسها الصعبة ليست عقبة مطلقة بفضل أوديتها العديدة . وإذا كان الطريق المحورى للحركة فى كلتا الصحراوين يتركز فى الشريط الساحلى الشمالى . فإن هذا

(1) George, Relations of geog. etc., P. 278

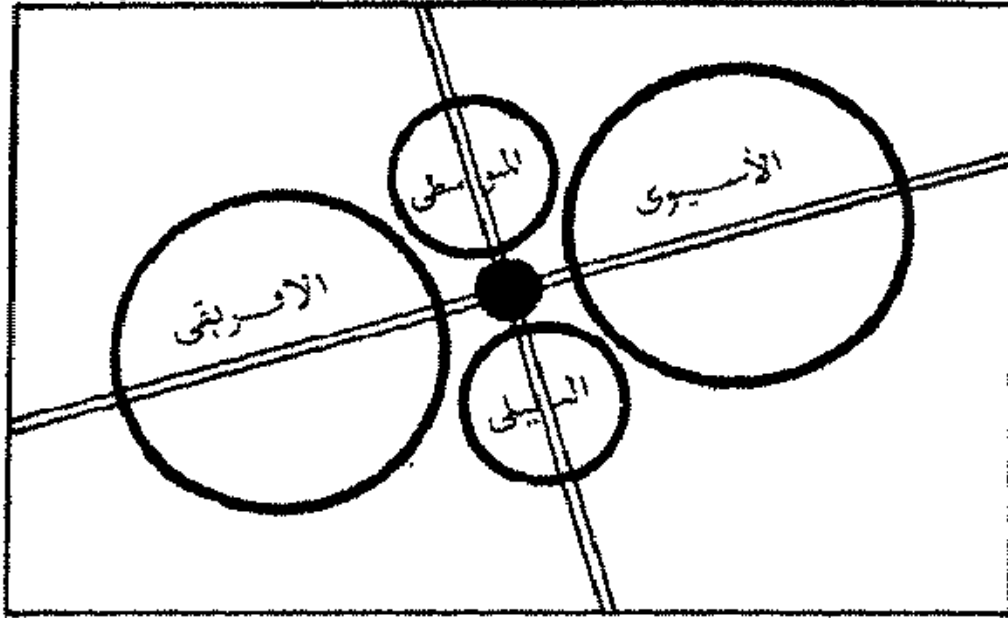
دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

الفارق العام بينهما يصدق عليه بالدرجة نفسها . ولهذا وذلك جميعا . لم
تكن مصر أسيوية أكثر منها إقليمية في توجهها الجغرافي فحسب ، وإنما
كذلك كانت مشرقية أكثر منها مغربية .



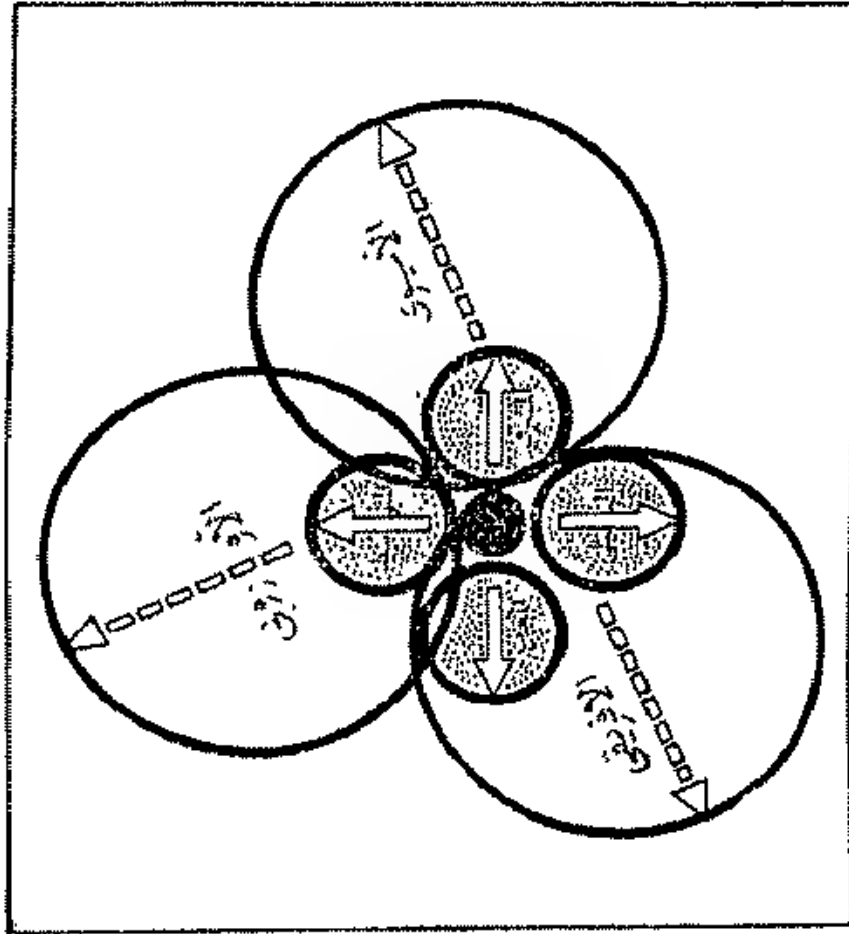
أبعادنا الأربعة

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة



.. أبعادنا الأربعة : رسم تخطيطى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة



أبعادنا الأربعة القارية والاقليمية - كروكي تخطيطي

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبغادنا الأربعة

ثم إن النيل لا يتحدر ويصب شمالا فحسب . ولكن وزنه وثقله
الفعلى يزداد كلما تقدم شمالا مع اتساع الوادى عموما . ولقد رأينا كيف
أوشكت الكأس أو الزهرة المصرية أن تكون مثلثا مسحوبا جدا وبالغ
الاستطالة . وأهم من ذلك أن الدلتا وحدها تضم ثلثى مصر مساحة ،
سكانا وإنتاجا وثروة . فاندفاع جسم مصر ، بطبيعة توزيع مراكز الثقل
فيه ، هو نحو الشمال . كذلك فإن الشمال دائما وطوال التاريخ كان كأم
واقع مركز الحضارات العالمية الفعالة والقوى السائدة الفاعلة ، كان
موطن الأخطار كما كان مصدر النفوذ المؤثر . كان ما فى مصر إذن
ينظر ويتجه إلى الشمال ، وكل مصر بدورها تلفت وتطلع إلى
الشمال . إن بوصلة مصر الجغرافية وموجهة طبيعيا ، سواء داخليا
أو خارجيا . نحو القطب الشمالى ، والشمال هو قمة وقبلة مصر جميعا .
وبعد هذا أيضا فإن الدلتا مفتوحة مكشوفة من الشرق والغرب ،
تؤدى تلقائياً إلى سيناء التى تحمل فى إقليم جفارها جسرا برى إلى آسيا
هياته الطبيعية بكتبانها الرملية وبما تحتزن من مياه الأمطار لأن يكون
المدخل الشرقى لمصر ومفتاحها الأم ^(١) . بل إن سيناء كما رأينا كانت

(١) عباس عمار ، المدخل الشرقى ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

دائما تثير السؤال : إفريقية أم أسيوية ؟ وأيا كان الرد . فهي حلقة
الوصل بين القارتين ، وهي موصل جيد إلى القطاعات الشمالية الهامة
من مجالنا الأسيوي . بل إنه إذا كانت مصر بعامة هي العقدة التي تلحم
المشرق العربي والمغرب . فإن سيناء هي العقدة التي تلحم مصر
بالمشرق مباشرة .

والى جانب سيناء يأتي البحر الأحمر كدهليز طويل يفضى بمصر
إلى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن ، مثلما كان طريقا لها إلى القرن
الافريقي ، وبذلك يشارك في البعدين الأسيوي والافريقي . أى أن لنا
أن نتساءل - كما تساءلنا عن سيناء - عما إذا كان البحر الأحمر بحرا
أسيويا أو إفريقيا . والواقع الجغرافى أن كلهما عنصر ، إفريقاسى ،
ومما له دلالة أن هذا ينسحب على شرق البحر المتوسط نفسه حيث
يتقاسمه الساحلان السوري والمصرى . أى الأسيوي والافريقي ، وحيث
يبدو هو الآخر بحرا إفريقاسيا بقدر ما هو بحر أوربي . بل من الطريف
أن الجزء من البحر المتوسط الواقع إلى الجنوب من كريت مباشرة كان
يظهر على خرائط القرن ١٩ باسم ، البحر الافريقي ، تميزا له عن

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

البحر الأوربي الواقع شمالها.^(١) وكل هذا التداخل أو التجاذب بين
الآسيوية والافريقية يؤكد البعد الآسيوي في هذا الجزء المتطرف من
إفريقيا .

فإذا عدنا إلى البحر الأحمر بقليل من تفصيل ، فهنا كان وادى
الحمامات - طريق قنا القصير (١٠٠ ميل فقط) - يقوم كخاضرة
للصحراء الشرقية بدور مناظر ولكنه مصغر لدور شريط سيناء . ومنذ
التاريخ المصرى القديم وهو يلعب دورا تكميليا في توجيه مصر الآسيوى
وارتبط فيه أساسا بالقطاعات الجنوبية الأقل أهمية . وإذا كان
المصريون القدماء قد سمو هذا الطريق ، طريق الآلهة ، اعتقاداً منهم
بأنه طريق أجدادهم الأول^(٢) ، فربما جاز لنا بالمقابلة أن نصف
طريق سيناء ، بطريق الغزاة ، لكثرة ما عبرته الجيوش .
غير أن من المفيد أن نذكر أن طريق القصير يتضاءل كلية بجانب

(١) زينب عصمت راشد ، كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ، ١٩٦٤
(الخريطة الأخيرة) .

(٢) أحمد فخري ، فى : دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٨٣ .

طريق سيناء ، إذ لا نكاد نعرف موجة أو حملة أتت عن طريقه يقينا إلا حملة أو ، تجريدة ، الهند في القرن الماضي . على أنه من الناحية التجارية لم يعدم قدرا كبيرا من الأهمية حيث كان مخرجا ومدخلا أساسيا لتجارة المرور بين البحرين عن طريق الصعيد والوادي ، لا سيما أن القطاع الشمالي من البحر الأحمر لم يكن مرغوبا في ملاحته لأخطار العواصف والشعاب المرجانية ، كما كانت تهدده أحيانا الأخطار الشمالية كأيام الصليبيات . هذا فضلا عن أنه كان طريق الحج التقليدي في العصور الوسطى . وتنعكس كل هذه العوامل على تاريخ موانئ جبهة هذا الطريق خاصة القصير والسويس .

قطب في دائرة الحلقة السعيدة

من محصلة هذه الضوابط الأولية - جنوح النيل إلى موقع شرقي ، صعوبة اختراق الصحراء الغربية ، توجه مصر الشمالي ، ثم توجيه طريقى سيناء والقصير - دخلت مصر في علاقة حميمة مع غرب آسيا . والواقع أنه قبل أن يولد العالم العربى وحتى اليوم كانت مصر لهذا تكون قطاعا حيويا من الحلقة السعيدة ، وهى تلك الحلقة من الأراضى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

الخصيبة أو الأكثر غنى التي تحيط بالجزيرة العربية . وكانت مصر تدخل فى هذه الدائرة عن طريق شريط سيناء الشمالى من ناحية ووادى الحمامات من ناحية أخرى . وكانت تلك الدائرة كاملة تجرى فيها تيارات التاريخ والحياة بلا انقطاع كالدائرة الكهربائية المغلقة . وكانت مصر قطبا أساسيا من أقطاب هذه الدائرة . ولهذا كانت تقف على بوابة إفريقيا وتنظر إلى نافذة آسيا .

وعلى الضلوع الغربية لهذه الحلقة السعيدة ، انبثقت منها وتداخلت معها أو انطبعن فوقها حلقة محلية أو ثانوية من مقياس أصغر ، الحلقة الصغيرة ، كما قد نسميها ، تلف حول البحر الأحمر وحوضه على طول سواحله الغربية والشرقية مستمرة عبر سيناء وباب المندب مع بعض توصلات فرعية عرضية عبر البحر كما عند القصير وجدة وبورسودان ومصوع ... إلخ. فى هذه الدائرة الكهربائية من الدرجة الثانية كانت تدور حركة التاريخ الاقليمى والتجارة والعلاقات والهجرات بلا انقطاع، مع وعكس عقارب الساعة بلا تمييز ، وذلك بين غرب الجزيرة العربية ووادى النيل ، خاصة بين مصر والجزيرة فى الشمال وبين اليمن والحبشة فى الجنوب .

فيها ، مثلا ، تنقلت هجرة الحاميين القدماء من جنوب الجزيرة إلى القرن الأفريقي وحوض النيل حتى مصر شمالا ، بينما دلفت في الاتجاه المقابل هجرة الساميين العرب مع الإسلام أو معهم الإسلام من شمال الجزيرة العربية إلى مصر فالسودان . وعلى نطاق محلي أصغر ، انتقلت جالية من صعيد مصر إلى مدينة بالحجاز قبل الإسلام استقرت وتوطنت ، ويقال إنها أصل أبنائها الذين استقبلوا النبي محمدا بالترحيب قبل فتح مكة . هذا ، وإذا كان القطاع الشمالي من هذه الحلقة الصغيرة ، تماما مثلما في الحلقة السعيدة ، هو أهم قطاعاتها بحكم الثقل المصري ، فإن العقدة الحرجة فيها أيضا هي بكل وضوح عقدة سيناء الأرضية .

الاتصال الأرضي

للاتصال الأرضي عبر جسر سيناء إذن أثر كبير وقيمة بالغة في توجيه مصر نحو آسيا توكيد البعد الآسيوي فيها . والذين يقللون عادة من تأثير العوامل الجغرافية جديرون بأن يراجعوا أنفسهم إذا تذكروا أن الإسلام . مثلا ، دخل السودان عن طريق مصر أساسا رغم أن السودان والجزيرة العربية يتوجهان طويلا عبر البحر الأحمر ، أو إذا هم تأملوا

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

كيف أن تأثيرات العروبة والاسلام الهامة فى شرق إفريقيا من القرن حتى مدغشقر هى أساسا تأثيرات ساحلية وجزئية ، بينما أن القطاع الشمالى الذى دخله العرب عن طريق البرى عبر سيناء هو وحده الذى استعرب وأسلم تماما . ولهذا فإن لنا أن نتصور كم كان يتغير توجيه التاريخ المصرى القديم والحديث لو كان البحر الاحمر يمتد بكامل عرضه حتى يتصل بالبحر المتوسط .

إن اتصال مصر الأرضى بآسيا عبر سيناء ، نحن نخلص ، له أهمية بالغة فى تاريخ مصر ، بل المنطقة العربية كلها . بل إن هذا الاتصال قد يكون أهم حقيقة منفردة فى تاريخ توجيه مصر كلها . وهو كحدث جيولوجى يشبه ، وإن بطريقة عكسية ، انفصال الجزر البريطانية عن القارة الأوربية ، وكلاهما قد يكون من الناحية التاريخية والبشرية أهم حدث جيولوجى أثر فى كيان البلد وتوجهه . لماذا ؟ - فكر فقط فيما عسى كان يمكن أن يحدث لو أن خليج السويس ، أو حتى العقبة ، كان مستمرا حتى البحر المتوسط بفاصل مائى كامل . لا شك ابتداء أن الصبغة الآسيوية والعد الآسيوى فى كيان مصر كان يكون مختلفا جدا ، محدودا إلى أقصى حد .

ثم هل كان من المحتم بعد هذا أن تصبح مصر . ومن ورائها
المغرب العربي كله ، عربية ، ولا نقول حتى إسلامية ، بالضرورة ؟
أمام كل من مضيق جبل طارق غربا والبوسفور شرقا . تقدم العرب و /
أو الاسلام ، ولكنهما عادا فارتدا وانحسرا عن الأندلس والبلقان على
الترتيب . هكذا ، ربما ، كان يمكن أن يكون حكم برزخ السويس لو كان
مضيقا : موجة فانهسار . ولا ننس أن المد العربي الأول كان بریا
بصرامة ، وكانت العقلية العربية تخشى البحر وتأنى عن عبوره .
لهذا فليس من الممكن الجزم بأن خريطة العروبة والاسلام كانت
لتأتى حتما كما أتت بالفعل . بل أبعد من هذا لتغير تاريخ مصر
والمنطقة والعالم كله ، لأن المضيق كان سيصبح طريق العالم ،
وكطريق للعالم فلا شك أن المؤثرات الأوربية بالذات كانت ستكون أقوى
بكثير في مصر . ولهذا فليس معنى أن مصر كانت ستصبح أقل أسيوية
أنها بالضرورة كانت ستصبح أكثر إفريقية ، وإنما على الأرجح أكثر
أوربية ، وبالتالي وبالتحديد أدق ، كانت حرية أن تصبح أكثر متوسطة
منها تبيلية .

بالمثل ، أو بالمقابل . لو كان مضيق باب المندب ملتحما بإفريقيا

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

دون فاصل مائى ، فلعل المد العربى هناك كان يكون أقوى وأبعد . وفى
الحالين ربما كان المد العربى الاسلامى قد اتجه إلى الحبشة وإفريقيا
القرن والصومال ووسط إفريقيا أكثر منه إلى بحر الروم والمتوسط ،
ولكان محور امتداده طوليا أكثر منه عرضيا .

من كل هذا فلا غرابة أن كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابة
مصر الرئيسية ومدخلها ، كان أكثر من ترمويل مصر ، منه دخلت
جميع الموجات التى اكتسحت البلاد ، فيما عدا أقلية نادرة أتت من
الغرب كالليبيين فى مصر القديمة والفاطميين فى العصر الاسلامى ، أو
من الجنوب كالنوبيين أو الاثيوبيين فى العصر القديم .

نحو الشرق

وبغض النظر عن القيمة النسبية لكل من طريقى سيناء والقصير ،
فلقد صبا أغلب نشاط مصر الخارجى فى الجبهة الآسيوية . فكانت كل
الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية تتم على أرض
آسيوية . وقد كان إطار النشاط المصرى فى آسيا لا يخرج تقليديا عن
الهلال الخصيب حتى . أقدام الأناضول ومشارف الفرات وتخوم العرب

البتراء . وإذا كانت مصر لم تصل فعليا في مدها الأسوي إلى قلب العراق فضلا عن فارس ، بينما وصلت قوى مختلفة من كل منهما أكثر من مرة إلى مصر ، فليس هذا لقصر ما في نفس الحركة المصرية . بل لعل العكس هو الصحيح ، فقد كان لمصر بعد آخر برمته هو البعد الافريقي ، بينما لم يعرف العراق أو فارس أبعادا أخرى مماثلة .

على أن هذا الزحف نحو الشرق Drang nach Osten اتسعت رقعته في القرن التاسع عشر حتى شملت الأناضول وكادت تشرف على إسطنبول مرة ، كما توغلت في نجد والحجاز حتى اليمن من الناحية الأخرى . وفي كثير من فترات التاريخ كانت ولاية مصر تشمل ضمنا جزءا قل أو كبير من الشام وإيالاته ، كما تمددت إلى غرب الجزيرة العربية أكثر من مرة .

ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط ، سواء قبل الاسلام أو بعده . فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا في قصة التوحيد بفصولها الثلاثة ، بينما أن قصة التوحيد بدورها لا تفهم في كل مراحلها إلا بذكر مصر . ومصر مذكورة في الكتب السماوية الثلاثة ذكرا متواترا إلى أقصى حد ، بحيث

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

تؤلف جزءا أساسيا من جغرافيا الأديان الثلاثة ومفتاحا جوهريا لتاريخها . بل إن مصر ونيلها وقرعوتها ومدائنها وخزائنها هي البلد الوحيد المذكور بالاسم والتضمين مرارا في القرآن .

وفيما عدا هذا ، فإن مواطن الأديان التوحيدية في سيناء وفلسطين والحجاز ترسم فيما بينها مثلث أو سهما رأسه يشكل مماسا لمصر في سيناء . فمصر أحد رؤوس أو ضلوع مثلث الأديان . كذلك فلقد انصبت هذه الرسائل جميعاً في مصر على التوالي ، وإن كانت كل فرشة منها تغطي وتغطي على سابقتها حتى سادت آخرها في النهاية ، وإلى هذا ، فإن مصر لعبت في مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دوراً أو آخر فكانت لموسى قاعدة ومنطلقاً ، ولعيسى ملجأ وملاداً ، وبينما كانت مع النبي محمد هدية ونسباً .

وثمة هنا مفارقة طريفة ، وهي أن درجة انتشار كل من الأديان الثلاثة في مصر تكاد تتناسب عكسياً مع درجة ارتباط رسولها بمصر . فموسى أشدهم ارتباطاً بمصر ، ولد وعاش وتربى بها ، بل يعده البعض مصرياً بالأصل ، ومع ذلك فلم تنتشر اليهودية في أوجها إلا انتشار جزئياً محلياً جداً . أما عيسى فقد جاءها طفلاً وأقام بها بعض الوقت ،

ولم تنتشر المسيحية في أوجها إلا نصف انتشار على الأكثر . أما النبي محمد فهو وحده من بين أصحاب الرسالات الثلاث الذي لم يجرى إلى مصر ، وإن كان وحده الذي أصهر منها ، ومع ذلك فقد قدر للإسلام أن ينتشر بها الانتشار الأكمل الأشمل .

وفي كل الأحوال فإن مصر تبقى بطبيعة الحال مسرحا أساسيا لكل الأديان والرسالات و معظم الأنبياء والمرسلين ، إن لم تجر معظم أحداث بعضها على أرضها فإن آثارها تحتفظ ببصمات أصابع البعض الآخر . فعدا سيدها التي تلخص أسماء الأماكن فيها كل قصة اليهودية واليهود ابتداء من عيون موسى وحمام موسى وحمام فرعون إلى جبل التيه وجبل موسى وجبل المناجاة إلى الوادي المقدس طوى ، نجد سلسلة متصلة متعاقبة من المواقع والمواضع الدينية الدالة والهامة .

فمن قرية غيته وتل يهوذا قرب بلبيس بالشرقية أو قرية شلشلمون قرب منيا القمح غير بعيد أيضا حيث عاش يوسف وأخوته (خزائن الأرض ،) بأرض جاشان (وادي الطميلات) ، إلى أون ومنف (المدينة ، في قصة سيدنا يوسف) ، إلى شجرة المطرية ثم قرية البهنسا في سعيد مصر حيث آوى ابن مريم

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وأمه (ربة ذات قرار ومعين) ، إلى قرية الشيخ عبادة أو أنصنا
القديمة ، ملوى ، المنيا ، من حيث جاءت ماريا القبطية زوج النبي
وأم ابنه إبراهيم .

قطاع عرشى و/ أو رأسى كامل للديانات التوحيدية الثلاث على
امتداد قاطع جامع لأرض مصر من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى
عبر الصحراء و على مدى الوادى دلتا وصعيدا .

مع آسيا العربية

على أن أهمية البعد الآسيوى فى الشخصية المصرية . تلك التى
تتلكس حتى منذ فجر التاريخ فى العنصر السامى المؤكد فى اللغة
المصرية القديمة ، الحامية أساسا ، وفى النقوش السينائية الشهيرة
الهيدروغرافية الأصل وأصل الأبجديات جميعا ابتداء من القبطية
والدبطينية إلى الفينيقية والاعريقية ، والتى تتكشف أشد ما تتكشف فى
سيناء خاصة حيث تمثل قطاعا عرضيا ورأسيا من تاريخ مصرى -
الآسيوى ورأس الحرية فى البعد الآسيوى - المصرى ، نقول إن هذه
الأهمية زادت واكتملت خاصة منذ العرب حين أخذت مصر الشخصية

العربية كاملة في اللغة والثقافة والدين ، بل لم تلبث أن أصبحت بها قلب العالم العربي والعروبة وهمزة الوصل بين المشرق والمغرب وبين آسيا العربية وإفريقيا العربية . ومنذ العروبة ، يلاحظ أن كل الدماء القريبة من الجبهة الآسيوية باستثناءات قليلة . فبجانب العرب ، يصدق هذا على عناصر الأكراد والتركمان والغز والديلم ممن أتوا كعماليك الأيوبية والمملوكية ، كما يصدق على الأتراك فيما بعد ومعهم الشراكسة ، ثم في القرن الأخير الأرمن وغيرهم . وفي نفس القرن اشتدت هجرة ودخول عرب الشام ولبنان وفلسطين إلى مصر .

وعند هذا الحد لابد أن نلاحظ بعض فروق محلية في بعدنا الآسيوي . فعموما كان ارتباطنا بالقطاع الشمالي منه أقوى بدرجة أو بأخرى منه بالقطاع الجنوبي ، لا سيما في العصور القديمة قبل الاسلام . ذلك أن مصر إذ تتصل عن طريق سيناء بالشام والجزيرة العربية تجد اتصالها بالشام أقرب وأسهل . لأن الطريق الأساسي في سيناء هو الساحل الشمالي المؤدى تلقائيا إلى الشام ، بينما أن الاتجاه نحو الجزيرة العربية تغيير حاد ولغة طويلة . كما كان تباين البيئة فالانتاج بين مصر الديلية والشام المتوسطى يحفز إلى التبادل التجارى ،

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

بينما ينقص صحراء الجزيرة العربية مادة التبادل إلى حد بعيد .

وعموما فلقد كانت علاقات مصر التاريخية مع الهلال الخصيب الشمالي من الحلقة السعيدة أقوى منها مع الهلال الخصيب الجنوبي من تلك الحلقة ، ولكن مجيء الاسلام صحح الوضع نحو قدر أكبر من التوازن ، ورفع ضغط أو نبض العلاقات بين الجزيرة العربية ومصر ثقافيا ودينيا وموجات الهجرة من الأولى ومواكب الحج ، والصرة ، السودية من الثانية .

ثم جاء البترول في الوقت الحالى ليزيد التفاعل بينهما عن ذى قبل وأكثر من أى وقت مضى ، تعامللا وتبادلا وهجرة وسياحة وعملا وسياسة . فالبترول أخرج الجزيرة العربية من عزلتها التى فرضتها عليها الصحراء والفقر ، فى الوقت نفسه الذى أخرجت قضية فلسطين مصر من عزلتها التى فرضها عليها الاستعمار والاقطاع الحاكم منذ القرن ١٩ . تعد مصر حاليا أكبر عامل تحضير وتعمير وتلمية منفرد فى كل الجزيرة العربية .

ولأول مرة تخرج الهجرة البشرية من مصر ، ولأول مرة تخرج

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبصادنا الأربعة

السياحة الدولية من الجزيرة العربية . وتستقبل مصر اليوم أكبر تيار من
السياحة العربية الصيفية سواء من دول الخليج أو السعودية . و بالمقابل
فإن حجم ووزن الهجرة المصرية المؤقتة أو العاملة في الجزيرة العربية
هي أكبر ما يوجد بالشرق ، بمثل ما أنها أكبر في المشرق الآسيوى
منها في المغرب الاقريقي .

ولما كان بترول الجزيرة مركزا كله في شرقها الأقصى ، والكويت
والاحساء وساحل الخليج ، فإن التداخل والوجود المصرى في الجزيرة
لا يتركز أو يقتصر الآن على نصفها أو قوسها الغربى ، الحجاز واليمن ،
مثلا كان السائد عادة طوال الماضى إلى ما قبل البترول ، وإنما بات
يغطى الجزيرة برمتها ويتغلغل فيها على كل المستويات الاقليمية
والمحلية .

بر مصر وبر الشام

نتيجة لهذا كله فإن كثافة العلاقات و التفاعلات بين مصر والقطاع
الجنوبى من بعدنا الآسيوى تغلبت أخيرا على نظيرتها مع القطاع
الشمالى ، بعد أن ظلت الأخيرة تحتكر الصدارة المطلقة طوال التاريخ

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

تقريبا . ويعد أن كان تباين الانتاج بين مصر والقطاع الشمالى عاملا
فعالا فى تلك العلاقة (محاصيل الرى الحارة هنا ومحاصيل البحر
المتوسط هناك) ، فإن تشابه التطور الحضارى والصناعى الحديث
بينهما (اشتراك الطرفين فى القطن والمنسوجات) أضعف منها نوعا .
فالتبادلات والعلاقات التجارية اليوم بين مصر وكل من سوريا
ولبنان والشام عموما والعراق أقل كثيرا بلا شك مما بين مصر وكل من
السعودية والكويت وسائر دول وإمارات الخليج ، ولو أن ما يقال عن
مصر فى هذا يصدق على هاتين المجموعتين فيما بينهما كذلك ، كما
أن علاقات وتبادلات ومعاملات كل من مصر فى جانب ووحدات
الشام والعراق فى الجانب الآخر مع وحدات الجزيرة العربية المختلفة
أصبحت تفوق تلك التى بينهما بكثـر . انقلاب مـادى وتجارى كامل ،
ولو أن النمط كله مرهون وموقوف بالبحرول وسيعطى مكانه يوما
ما للنمط التاريخى القديم جزئيا .

ومهما يكن الأمر ، فإن العلاقة بين مصر والشام عموما تظل
علاقة خاصة ، فى أكثر من معنى . فـلـلـشـام هو أكثر ما ارتبط

بمصر وتفاعل معها على امتداد بعدها الأسيوى ، وذلك إذا أخذنا متوسط التاريخ . فثمة الجوار الجغرافى المباشر ، ثم الوحدة الاستراتيجية الجذرية عبر التاريخ . وعن الجوار الجغرافى بالذات ينبغى أن نلاحظ أن بادية الشام تفصل الشام وتبعده نوعا عن العراق رغم اتصالهما وتقاربهما فى أقصى الشمال . وفى أقصى الجنوب بالتحديد ، حيث تتسع الصحراء إلى مداها يزداد الفاصل بين فلسطين والعراق إلى حد يبلغ عدة أضعاف الفاصل الصحراوى بين فلسطين ودلتا مصر .

من هنا فإذا كان شمال الشام أقرب إلى شمال العراق ، فإن جنوبه أقرب إلى مصر وإن يكن الشام والعراق ، اللذان يؤلفان الهلال الخصيب ، هما كالتوائم بين الأشقاء ، فإن الشام ومصر أيضا هما فى الوطن العربى توأمان آخران إلى حد كبير . وتزداد هذه العلاقة تكثفا فى جنوب الشام ، حيث تبدو فلسطين بالذات وهى من أكثر جيران مصر تأثرا بها . وليس صدفة أن قاموسنا التاريخى كان يشير دائما إلى « بر الشام ، كمقابل ومناظر ، لبر مصر » ، فهما ضلعا زاوية البحر المتوسط القائمة ، ولا تعرف فى هذا القاموس « برين » آخرين سواهما ، كأنهما وخدمهما ضفتان لنهر واحد أو شاطئان لبحيرة واحدة .

مصر وفلسطين

ابتداء ومبدأ لنا بكل سهولة ويقين أن نقرر أن مصر إن تكن أكثر إفريقيا أسيوية وعروية ، فإن فلسطين هي أكثر آسيا والعروية إفريقية ومصرية معا . تلك أبسط مبادئ منطق الجغرافيا والجوار الجغرافي ، إن لم يكن لأن ، كل الجيران أقارب ، تقريبا كقاعدة أنثروبوجغرافيا شبه عامة ، فبحكم الأمر الواقع والواقع التاريخي . فكما أن فلسطين بداية البعد الأسيوي في كيان مصر ، فإن مصر هي بداية البعد الإفريقي في كيان فلسطين بالضرورة . وكلتاها تعد بمثابة الزر والعروة التي تلحم كلا البعدين أو كما يفعل شفا الكبسولة . ولعلها أكثر من صدفة أن تزدوج مدينة رفح على جانبي الحدود - مثل نادر - رامزة كما يلوح إلى هذا الالتحام الأعم الأشمل .

فإذا فصلنا القول ، فإن الفلسطينيين يبدون من البداية من أقرب العرب عموما ، وعرب المشرق وآسيا خصوصا ، إلى لهجة ولون بشرة وطريقة حياة وحضارة . بل لعل فلسطين أن تكون من الحالات القليلة النادرة التي انتقلت إليها هجرة ودماء مصرية بدرجة هامة أو مذكورة قد تتجاوز في تقدير البعض من الباحثين الفلسطينيين أنفسهم ومن

جانبهم كل توقعاتنا العادية ونصورنا التقليدى . على أية حال فإن تدفقات الهجرة والدماء والاندماج هنا كانت دائما مزدوجة في الاتجاهين ، على عكس المؤلف أو السائد مصرياً . أو كما وضعها العقاد كان المصريون والفلسطينيون في مجال الهجرة فرسى رهان أو فرسى مقاريين . (١)

فمنذ الحملة الفرنسية على مصر ، إذا قصرنا أنفسنا على التاريخ الحديث فقط ، كانت فلسطين ملجأ ومهرباً أو منفى لكثير من المصريين في فترات الاضطهاد أو الاضطراب أو المحن والأزمات ، ابتداء من الحملة نفسها ، إلى حملات محمد على وحروبه في الشام وفلسطين ذاتها ، إلى عملية السخرة في حفر قناة السويس ، إلى الحركة العرابية حتى تجنيد أنفار السلطة ، أثناء الحرب العالمية الأولى ... إلخ . وكما أن من هذه العانصر من عاد إلى مصر بعد إقامة طالت أو قصرت ، فإن من الثابت المؤكد يقينا أن كثرة هامة منها استقرت وتوطنت وانصهرت في الكيان الفلسطيني ، ولا تزال آثارها وذكرياتها باقية ملحوظة في السحنة واللهجة وفي العادات والأسماء ... إلخ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

والأخير بالذات ، أسماء الأشخاص والعائلات ، تعد كشافا جغرافيا
أمينا وباقيا يشي بالأصل المصرى عموما ويشير إلى شرق الدلتا
خصوصا ، حيث تتواتر - إلى جانب اسم « المصرى » بصفة عامة -
أسماء مثل العريشى ، الشرقلى ، والبليسى ، الانشاصى ،
والزعبلاوى ، والدمياطى ... إلخ (١) .

لا خلاف إذن على الأثر والدم والوجود المصرى المادى فى الكيان
الفلسطينى وتكوين فلسطين . ولكن ما قد يكون محل خلاف هو فقط
تقدير حجم تلك العناصر والمؤثرات وذلك الخروج والهجرة ثم مدى
الاستيطان أو العودة . فمن جهة وجد نابليون فى يافا نحو ٤٠٠
مصرى ، أمر بإعادتهم إلى مصر حين رفضوا الالتحاق بجيشه . أما
محمد على فإنما كانت ذريعتة فى حملته الأولى على فلسطين هى
بالدقة مطالبه بإعادة المصريين الفارين من سخرته ويطشه ، والذين
يقدر عددهم بنحو ٦٠٠٠ .

(١) إبراهيم محمد الفحام ، « المصريون والفلسطينيون شعب واحد » ، مجلة
العربى ، أكتوبر ١٩٨٢ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

ولكن المهم حقا هو ما حدث في النهاية . ذلك أن جيوشه المنسحبة من الشام في آخر عهده خلفت وراءها ، ألوقا من المصريين أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ، على نحو ما كان من أمر الألسوف السابقة التي كانت ذريعة الحملة والذين كانوا قد تفرقوا في أنحاء فلسطين ، وأحالتهم بودقتها شاميين ، كما يذكر محمد كرد علي . (١)

أما المؤرخ الفرنسي موربيه فيحدد لنا تلك الآلاف المتخلفة بما لا يقل عن ١٤٠ ألفا مرة واحدة (كذا) ، حيث أن عدد أفراد الجيش من قوات ومدنيين وعائلات كان قبل الانسحاب ٢٠٠ ألف . عاد منهم إلى مصر ٦٠ ألفا فقط كما يذكر . (٢) ولما كان هؤلاء المتخلفون قد اندمجوا وانصهروا في أبناء البلاد كما يؤكد موربيه هو الآخر أيضا ، فإن أثرهم إن صحت تلك الأرقام الضخمة - لا يمكن المبالغة فيه بحال فضلا عن تجاهله أو التقليل منه .

(١) محمد كرد علي ، مجلة الهلال ، إبريل ١٩٤٠ .

(٢) الفحام ، ص ٤٤ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وهذا فعلا يصل بنا كاتب فلسطيني ثقة هو عمر البرغوثي إلى ذروة مثيرة حقاً . ولكنها منطقية للغاية مع المعطيات السابقة . حين يقدر أن أكثر من عشر سكان فلسطين يمتون إلى أصل مصري ، ثم يضيف مفسر بعد هذا التقدير المثير «هاجرت عائلاتهم مع جيش إبراهيم باشا إلى فلسطين ، ثم التجأت عائلات أخرى فرارا من السخرة والشدة في حفر القتال . . . (١)

ومهما يكن التقدير ، فإن الأثر المصري يتركز أكثر ما يتركز في الساحل . ما بين خان يونس وعكا . وعلى المستوى التفصيلي ، يؤكد عارف العارف أن المصريين كانوا «أهم عنصر من عناصر السكان الذين استوطنوا غزة على مر الأحقاب ، (٢) ، بينما نعرف نحن اليوم أن بالقدس نحو ٢٠٠ أسرة قبطية مصرية متوطنة هناك منذ أجيال .

(١) عمر الصالح البرغوثي ، الوزير البازيري ، ١٩٤٧ ، ص ١١ .

(٢) عارف العارف ، تاريخ غزة ، ١٩٣٤ ، ص ٣١-٣٥ .

فلسطين ومصر

فى الاتجاه المقابل ، إذا انتقلنا الآن إلى الجانب الآخر من الصورة ، فقل من التكرار وحده أو من التزيد حقا أن نضغط على الأثر والتدفق الفلسطينى على مصر . فمنذ القدم والقبائل العربية الأصل من الجزيرة العربية والموزعة بين الشام ومصر ، تمثل قاسما مشتركا وحلقة وصل بين الجانبين . فالسماعنة والسواركة ، التياها والترابين ، الرميلات ، الأحارسة والمساعد ... الخ ، لكل هذه القبائل فروع ويطون فى كل من مصر وفلسطين، وما زالت العلاقات اليومية العادية متصلة بين الجانبين كأقارب .

ودعنا لا ننس إلى هذا أن كثيرا من هذه القبائل وغيرها هجر البداوة واستقر فى صميم الريف المصرى وذاب وتمصرتما^(١) . وما زالت أسماء الأماكن - مرة أخرى - تكشف تلك الأصول . وما زالت أسماء الأماكن - مرة أخرى - تكشف تلك الأصول . مثال ذلك قرية

(١) الفحام ، ص ٤٣ - ٤٥ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

السماعنة بالشرقية ، نسبة إلى قبيلة السماعنة ، (١) أو قرية برفين بالدقهلية ، فهي سمية للقرية الفلسطينية الأم ، وهكذا .

أما في العصر الحديث ، فكما لجأ كثير من المصريين إلى فلسطين هرباً من سخرة حفر القناة ، فإنها بعد ازدهارها بالمدن والنشاط اجتذبت بين ما اجتذبت كثيراً من الفلسطينيين إلى الهجرة إليها والاستيطان بها . وكما لا تخلو مدينة فلسطينية الآن من واحد من « البلباسة » ، أى المصريين أبناء بلبس أصلاً ، يكثر « البلباسة » ، و « الخلايلة » ، أى الفلسطينيين من أبناء نابلس والخليل أصلاً ، فى مدن مصر ابتداء من الأقاليم حتى العاصمة . (٢) .

والى قريب كانت التجارة والبقالة وتسويق الصابون والزيت لصيقة بالفلسطينيين المقيمين إلى حد أن كان البقال عندنا يعرف بالفلسطينى أحياناً أو بالشامى عموماً فى الغالب . ولن نكرر هنا أسماءهم الجغرافية الدالة ، ابتداء من عكاوى وقصى وصفدى إلى الياقنى والغزى أو الغزاوى ... الخ .

(١) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية .

(٢) الفحام ، ص ٤٥ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأريضة

أخيرا فلا حاجة بنا أن نذكر أثر الكارثة الاسرائيلية على فلسطين
وتدفق عشرات الآلاف من الأشقاء على مصر حيث يقيمون الآن ،
بعضهم يندمج ، وبعضهم يتقدم فى التجارة والأعمال ، فهذا شأن
المستقبل مثلما هو مسألة الحاضر ، والأمر كله مرهون بالقضية
والصراع .

وإنما ينقلنا هذا انسيابيا إلى القفلة الختامية. للبعد الأسوى
وتقييمه العام فى كيان مصر جملة . فالواضح فى الوقت الحاضر أن
الثقل الأكبر من السياسة القومية لمصر المعاصرة يتجه إلى الجبهة
الأسوية ، لا شك بفعل القضية الفلسطينية أساسا ، تلك التى أصبحت
بطريقة أو بأخرى شئنا أو أبينا جوهر ومحور وجماع سياسة مصر
الخارجية فى الواقع .

وإذا كان هذا التوجيه الأسوى عودا فى الحقيقة على بدء قديم
التاريخ ، فإن قضية فلسطين بالدقة تؤكد ه اليوم كما تحتّمه ، تماما
مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . فمنذ حرب فلسطين
خاصت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الأسوية ، بما فى
ذلك اليمن .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وإنه لمن الواضح جدا - في الخلاصة ، أن البعد الآسيوي هو البعد المحوري في توجيه مصر الخارجى ، فضلا عن أنه أساسا علاقة أخذ وعطاء من طرفين ، تمتاز بالاستمرار و الاطراد دون ذبذبة أو تقطع . ولا شك أنها غير علمية إطلاقا ، إن لم تكن مغرضة حقا ، تلك التى حاولت حينما ما أن تبتر بعدنا الآسيوى بزعم أنه « لم يجئنا من آسيا خير قط » ، إشارة إلى أخطار قديمة كالمغول والترك ... إلخ ، فهى إشارة مبتورة ناقصة بقدر ما هى ملتوية مضللة .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

الفصل الثانى

البعد الافريقى

كما يتداخل الكل مع الجزء العام مع الخاص ، يتداخل هذا البعد مع البعد النيلى حتى ليتمكن أن نزعج أن القطاع الأكبر من بعدنا الافريقى إنما هو ببساطة بعدنا النيلى ، يكمله من يمين قطاع ثانوى نسبيا على طول البحر الأحمر وشرق إفريقيا ، ومن شمال قطاع آخر يجمع المغرب العربى والصحراء الكبرى . ولهذا يحسن أن نتحدث عن البعد الافريقى بإيجاز وتعميم قبل أن نركز على جوهره البعد النيلى .

وواضح أن أرض مصر تربة وماء جزء من جسم إفريقيا . وإذا كنا قد رأينا أنها ، بحكم موقعها على أطراف القارة بعيداً عن قلبها ، تعد أكثر أجزاء إفريقيا أسيوية ، فإنها ليست بالضرورة أقلها إفريقية وإن كانت من أقلها بالطبع . أما السكان فمن النظريات كما رأينا ما تربطهم بالقرن

الافريقى أصلا وقرى للهاميين ومنطقة تكوينهم لا تخرج عن دائرة القرن الافريقى ، وإليهم ينتمى أولئك وهؤلاء^(١) . غير أننا إذا قبلنا نظرية عصر الجفاف التى أعقبت العصور الحجرية القديمة ، فلعلها لا تحتم بالضرورة وفى حدود هذا المدى الزمنى أن يكون المصريون من أصل غير محلى أو اقليمى .

من الناحية الأخرى ، فمن الاثيوبيين القدماء من كان يعتقد أن المصريين القدماء بعض من نسلهم أصلا ، هاجروا إلى الشمال ، وأن مصر بذلك بشريا ، لحما ودماء ، من صلب الحبشة ، مثلما هى طبيعيا ، أرضنا وماء^(٢) . ولكن لعل هذا نوع من الأساطير الشعبية التى تنبثق من تاريخ ضبابى مهتز ، أو ربما هى تذكرنا بتقاليد المصريين القدماء أنفسهم حيث كانوا يسمون بلاد بونت ، أرض الأجداد ، .

وأيا ما كان . فإن هناك اتجاهاً متزايدا هذه الأيام - ربما كرد فعل متطرف لمحاولات الاستعمار المترفة لتمزيق القارة - للبحث عن تلك الأصول فى مجال الأركيولوجيا الافريقية والانسان الأول . غير أن هذا

(1) Schigman, Races of Africa, .

(2) G. Schweinfurtg, in : Baedeker, Egypt and Sudan, 1914 , P xlix

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

اتجاه تحف به مزالق علمية كثيرة ككل ما يتصل بالماضى السحيق ،
وقد يرتب نتائج ضخمة على فروض ونظريات تخمينية . والذين
يفعلون ذلك ربما كانوا يفعلون أسوأ مما يفعل أصحاب الفرعونية ، فهم
لا يعودون فقط إلى الماضى البعيد المكتوب ، ولكن إلى الماضى السحيق
قبل المكتوب وقبل التاريخ ولا نقول قبل الانسان العاقل !

الدور الحضارى

وإنما حسبنا أن نقول : إن مصر ، التى كانت طليعة ومهد الحضارة
فى القارة ، قد صدرت إليها كثيرا من إنجازاتها منذ فجر التاريخ . فلقد
جعلت الظروف الجغرافية والتاريخية من مصر مشعل النور الأكبر فى
القارة المظلمة ، ولا نقول : منارة إفريقيا الوحيدة حضاريا . وإذا كان
ثمة فى العالم بلد واحد تصدر قارته على مستوى القمة أطول فترة فى
التاريخ بلا انقطاع ، فهو لا شك مصر فى إفريقيا . إنها ، أكثر بالتأكيد
من أى بلد آخر فى العالم ، قمة قارتها المطلقة والخالدة ، وإذا كان هناك
بلد منفرد فى إفريقيا أعطى القارة وأثر فيها أكثر ما تأثرت قبل العصر

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

الأوربي . فمصر هي هذا البلد . ودون عنصرية أو استعلاء ، ومع
الفارق ، فلقد كان المصري هو « الرجل الأبيض » ، في إفريقيا السوداء
إلى أن جاء الرجل الأوربي .

وفيما عدا هذا ، فالواقع حضاريا أن مصر ليست إفريقية بقدر ما أن
إفريقيا هي المصرية . فبينما لم تكد مصر تستمد شيئا من إفريقيا
حضارة ، فإن تأثيرها الحضاري قد غزا معظم القارة . فالكثير من
حضارة إفريقيا هو جزئيا من حضارة مصر ، ومعظم إسلام القارة مر
من هنا . وعلى الجانب الآخر ، فإن إفريقيا - القارة المظلومة التي
يصفها البعض بأنها حضاريا آخر القارات قبل أنترككتيكا ⁽¹⁾ - لا تجد
بين جنباتها وبناتها أكثر من مصر ترد به الاتهام وتفاخر العالم ، فهي
أم التاريخ في قارة قيل : إنها بلا تاريخ .

غير أن تأثير مصر الحضاري على إفريقيا ونشاطاتها فيها
واتصالاتها معها تتفاوت في الكثافة والنوع والدرجة من إقليم إلى آخر

(1) G. T. Renner Africa : a study in colonialism, in : World Political
geography, ed. Percy and Fiffeld, N. Y., 1951, P. 939.

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

بحسب الضوابط الطبيعية والمسافة الجغرافية . فهي أقوى في نصف
القارة الشمالي بعامة ، ثم تقل وتتخلخل تدريجيا تجاه الجنوب . وهي
في النصف الشمالي تتنقل في شبكة من محاور وقنوات ترسم نمطا
مميزا يعكس الوراثة أضخم أبعادا ومسافات ولكنه أضعف كثافة واتصالا .
يكاد يكرر نمط الحلقة السعيدة الذي وجدناه في المشرق العربي .

فإذا كان النيل والمغرب يؤلفان معا الهلال الخصيب الأفريقي
الضخم في الشمال ، فهناك هلال آخر أقل وزنا يكمل الدائرة في
الجنوب وإن اتصلت حدوده وضاعت في كتلة المعمور المداري إلى
الجنوب . هذا الهلال يمتد من السودان النيلي على طول نطاق السفانا
وإقليم « الساحل » (وصحته السهل : ويمثل هوامش الصحراء كما تسمى
في السودان الغربي) حتى غرب إفريقيا والسنغال حيث ينتهي شمالا
على سواحل موريتانيا واصلا إلى المغرب العربي والحلقة كلها تتحلق
حول الصحراء الكبرى - القلب الميت - التي لا تخترق إلا على محاور
من خطوط الراحات . وعلى امتداد هذه الخطة تحرك النفوذ والأثر
والإشعاع المصري عموما .

على محور الجنوب

فخارج البعد النيلي ، تأكد هذا الأثر مرارا على محور البحر الأحمر منذ رحلات بونت الدالة . يلاحظ هنا أن بونت إن كانت تعنى عدد بعض المؤرخين دائرة القرن الأفريقي والجنوب العربي ، فإنها تمتد عدد البعض الآخر لتشمل ساحل الزنج وزنجبار وشرق إفريقيا بلا استثناء . كذلك يحتمل إشعاع مصرى خفيف على محور الصحراء الكبرى حيث وجدت أدلة على المؤثرات الحضارية المادية والثقافية بين القبائل النيلوتية فى أعالي النيل وبين بعض قبائل نيجيريا وغرب إفريقيا (١) . بل إن هناك إشارة غريبة عن معرفة الطوارق الأحياء اليوم للغة الهيروغليفية القديمة ، إن صحت لمكانت أكثر دلالة وأشد إثارة (٢) . والمقول أيضا أن الفولا ، فى نطاق السفانا ابتداء من سودان النيل حتى

(١) عبد العزيز كامل . دراسات فى إفريقيا المعاصرة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٧٣-٧٩ .

(2) Lois Berggren, in : Guidebook to geology and archaeology of Egypt, P. 39 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

السفغال ، والذين يقدرّون بعدة ملايين ويلعبون دورا عظيما في حياة
غرب إفريقيا ، المقول أنهم « أصلا هجرة من صعيد مصر ، استدارت
نحو الجنوب فالغرب فاستقرت فتوطنت . (١)

كذلك تسجل العصور الوسطى علاقات متواترة بين
مصر والسودان الغربي وغرب إفريقيا على طول محور السفانا - الساحل
(السهل) وعبر خطوط الواحات ونيل السودان ، إذا كان طريق الحج
السوداني هنا مباشرا إلى مكة قبلة الدين ، فقد كان الأزهر قبلة
علم الدين . ولهذا انشعب إلى مصر باستمرار تيار من الطلاب
والتجارة والحكام ترك له بعض شواهد وبقايا في مصر (كالذكرور
مثلا ، من التكرور ، وهم التوكولور أحد شعوب غرب إفريقيا) . أهم
من ذلك رد فعله الحضاري والثقافي الكبير الباقي حتى اليوم على
شعوب هذه المناطق التي عرفها جيدا وذكرها ابن خلدون وابن
بطوطه . ويكفي تعبيرا عن هذا الأثر أن كل مستكشفي شمال القارة من
الأوربيين في القرنين أو الثلاثة الماضية سجلوا دهشتهم لأنهم وجدوا

(١) محمد رياض ، كوثر عيد الرسول ، إفريقيا ، ١٩٦٦ ، ص ٤٠٩ .

ذكر مصر وهبتها في كل مكان وصلوا إليه في تلك الأعماق (١) .

على محور الشمال

ذلك كله عن علاقات مصر الإفريقية على المحاور الجنوبية .
ولكن العلاقات على محور شمال إفريقيا جاءت من نوع آخر أدخل في
الوجود العربي الكبير . وهي والبعد النيلي بمثابة ذراعين طويلتين
ضخمين تنتهيان إلى مصر لتتصلا عن طريقها بالحلقة السعيدة في
المشرق العربي . فمنذ البداية دخلت مصر مع الليبيين في احتكاك بعيد
المدى بالغارات والحملات وبالتسرب والتوطن ، سواء في غرب الدلتا
أو جهة الفيوم والصحراء ، بل وأسسا كما رأينا إحدى الأسرات في تاريخ
مصر . ومن الناحية الأخرى فما أكثر ما امتد التوسع والنفوذ السياسي
المصري إلى برقة ، خاصة أيام البطالسة والعرب . كذلك كان الرومان
يعتبرونها جزءا من مصر . وحتى من قبل ذلك كله . كان فخار القبائل
في جرجرة بالجزائر اليوم يشبه فخار قدماء المصريين قبل الأسرات ،

(١) مؤنس ، مصر ورسالتها ، ص ٤٠ - ٤٣. (1) Seligman, id., p, 140.

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

فضلاً عن تشابه الجنس ، مما يؤكد قدم وعمق هذا المحور (١) .
وإذا كانت أخطار الشرق والمشرق قد صرفت نظر مصر عن برقة
بعض الوقت في العصور الوسطى . فإن الأثر الحضارى لم ينقطع
وظلت برقة تتجه إلى مصر كمركز وسوق حضارى والعمران الكبير ،
ولا زال طابع المؤثرات المصرية واضحاً في برقة إلى اليوم . (على
هامش ، فلما كان نمط العمران في برقة مشتتاً يتوزع حول الجبل
الأخضر على أطرافه الساحلية وأقدامه الصحراوية ، فقد كان يبدو من
الأسهل أحياناً على أبنائها أن يتلاقوا في الاسكندرية أو القاهرة على
نهاية الطريق الساحلى . تماماً كما يقال عن ويلز حيث يتندر بأن من
الأسهل لأبنائها أن يجتمعوا في بادنجتون في لندن على نهاية خط
السكة الحديدية ١) .

وأياً ما كان فلقد أعادت ظروف الاستعمار الإيطالى وهجرة والتجاء
البرقاويين إلى مصر تأكيد هذه العلاقات ، بمثل ما استشعرت طرابلس

(1) Seligman, id., p, 140.

وتونس قديما ظلا من الطابع المصرى غير المباشر عند هجرة بنى
هلال وسليم من صعيد مصر فى العصور الوسطى . واليوم يمثل أولاد
على بمربوط ، وهم قبائل عربية وافدة أصلا ، حلقة وصل بشرية بين
مصر وليبيا والمغرب الكبير ، على نحو ما تفعل القبائل العربية المماثلة
على الجانب الأيمن من مصر حيث تتوزع بينها وبين فلسطين والشام
والجزيرة العربية .

وعدا هذا فقد كانت مصر بوابة التعريب بالنسبة للمغرب كله .
وتواترت العلاقات المتبادلة فى العصور الوسطى متجاوزة جزيرة
المغرب إلى غرب الصحراء الكبرى فى موريتانيا (شنقيط) ، حيث
تطلع الشناقطة إلى مصر وتأثروا بها ثقافيا بشدة على نحو ما فعل
السودان الغربى على محور السفانا جنوبا . أيضا كان هناك على
مستوى علاقات الدفاع طريق التحذير الساحلى الشهير بتبراته
، ومحارسه ، ، بينما وصلت العلاقات السياسية إلى قمته فى الغزو
الفاطمى لمصر .

غير أن الحج لا شك خير ما يلخص كل علاقات هذا

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

المحور . فقد كان ، الركب المغربي ، يصل أحيانا إلى ٥٠ ألفا من الحجاج في العام^(١) . وكان طريق الحج رافدا سنويا أو دائما يصب مؤثراته بهدوء في مصر . وإليه ترمز اليوم العشرات من أضرحة ومقابر الشيوخ المغاربة أو المستغربين من أصل عربي على طول ساحلنا الشمالي الغربي ثم إلى قلب الدلتا ، ابتداء ذلك من سيدى برانى وسيدى كرير وسيدى عبد الرحمن ، إلى سيدى المرسى والشاطبي (الاسكندرية) ، إلى الشيخ الدسوقي (دسوق) والشيخ طلحة التلمساني (كفر الشيخ) . والأخيران ، اللذان تدسب إليهما مدينتاهما كما هو واضح . هما من أقارب السيد البدوي (طنطا) الذي يعد القطب الأكبر بين هؤلاء الشيوخ المغاربة ، الذين توغلوا أيضا إلى أعماق الصعيد كما فعل سيدى عبد الرحيم القنائي (قنا) ... إلخ .

والواقع أن طريق الحج الساحلى كان طريق رحلة واستقرار معا ، حج وتعمير ، بما كان يستقر على طوله من المغاربة ، وخاصة في

(١) مصر ورسالتها ، ص ٣٢ - ٣٨ .

مصر ، وبالأخص في القاهرة حيث نما لهم حي بذاته وهو حي
المغارية . وهو بهذا يشبه أن يكون نسخة متوسطة عربية من طريق
حج السفانا - الفلاتة الأحداث في السودان الغربي والشرقي .

وقد انصب في هذا التيار فيما بعد رافد من مغاربة الأندلس ، وذلك
بعد أن تعرض ، المغرب الأوربي ، لضربات ، الاسترداد ، المسيحي ،
أتوا مصر إما كمنذرين منبهين وإما كنازحين مهاجرين^(١) . في
القرن ٨ الميلادي - مثلاً - نزحت ١٥ ألف أسرة أندلسية إلى
الإسكندرية^(٢) وتستطيع أن نقرأ رمزا للرافد الأندلسي هذا في أسماء مثل
المرسى (من مرسية) والشاطبي (من شاطبة Jativa) والطراطوشي
(من طراطوشه Tortoza) ... إلخ .

وكما في حالة البعد الآسيوي ، فإن الكفاح المشترك ضد الاستعمار
والاستعمار الاستيطاني في المغرب العربي عموماً ، ثم ظهور البترول

(١) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، ١٩٧٦ ،
ص ٥٢٧ .

(2) S, Lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages, P. 35 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

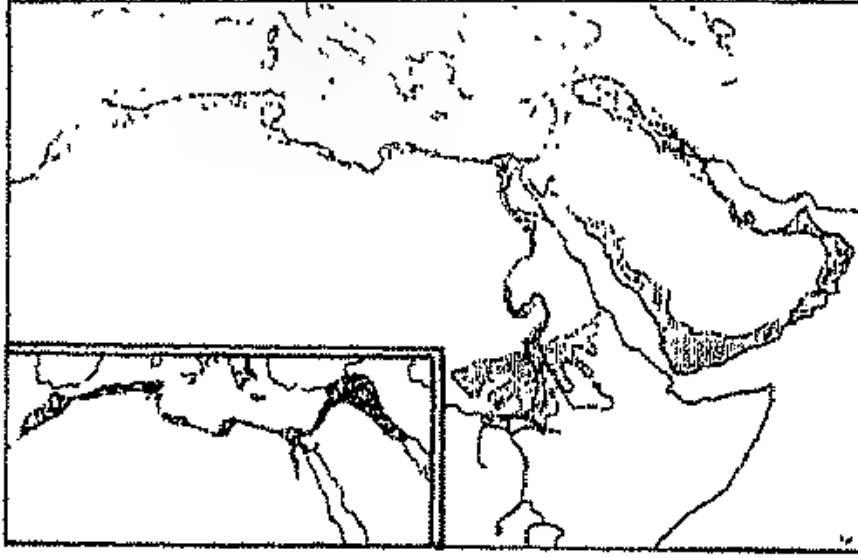
فى معظم وحداته بعد ذلك ، جاء فى الفترة الأخيرة ليعيدا تدعيم
وتكشيف العلاقات والتبادلات والتفاعلات على طول هذا المحور . فكما
شدت قضية تحرير فلسطين مصر إلى المشرق ، شدتها ملحمة الجزائر
إلى المغرب . ثم جاءت حاجات التنمية والتعمير بعد البترول ، خاصة
فى ليبيا ، وكذلك إعادة التعريب فى الجزائر ، لتخلق تياراً من الهجرة
المصرية إلى الغرب ومهجرا مؤقتا فى المغرب . ولقد يقل وزن هذا
البعد نوعا عن نظيره فى المشرق ، كما أنه على العكس منه يقل كثافة
وثقلا كلما ابتعد عن مصر ، إلا إنه يظل علامة بارزة على محور
رئيسى داخل هيكل البعد الأفريقى لمصر .

والآن فلنلخص . فى نظرة مجملة ، فإن أبرز خصائص بعدنا
الأفريقى أنه فى الدرجة الأولى بعد طبيعى خام أكثر مما بعد حضارى
فعال متفاعل . وعلى هذا الجانب الأخير ، فإنه إرسال أكثر مما هو
استقبال ، إن لم يكن محض إرسال ، أى من طرف واحد وليس متبالا .
ثم إنه بعد بشرى أكثر منه اقتصاديا ، حيث كانت علاقات التبادل
والعامل الاقتصادى ضعيفة أو محدودة للغاية . ولكن حتى مع ذلك فإنه

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبغدادنا الأربعة

التشابه أو النسب الجنسى فيه . والواقع أنه لو لا القطاع النيلى والمغربى
أو العربى عموما فيه ، لتضاءل وزن البعد الافريقى عموما إلى حد بعيد
جدا . وختاما . وهذا أغرب ما فى الأمر ، فإن ظهوره كبعد من أبغدادنا
الجغرافية تأخر كثير جدا حيث ظل واهيا معظم التاريخ القديم ، ولم
يزدد إلا ببطء شديد فى العصور الحديثة ، بينما لم يأخذ حجمه الكامل
إلا أخيرا جدا منذ عصر التحرير فقط .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة



هيكل المعمور الأساسي في الوطن العربي . يتألف من الحلقة
السعيدة في المشرق تتصل بها ذراعان عظيمان هما حوض النيل من الجنوب
العربي من المغرب . أما اذا ضيقنا بؤرة عدستنا فستبدو أهم قطاعات المعمور
كهلالين خصيين يلتحمان في مصر هما الهلال الخصيب الآسيوي والافريقي .

مصر بين العروبة والافريقية

تلك بعمامة هي الخطوط العريضة في العلاقات واتجاهات مصر
الافريقية . ومن السهل إذن أن نرى أن البعد الافريقى فى كيان مصر
يتفق فى معظمه وباستثناء هوامش ثانوية مع المجال العربى سواء ذلك
فى دائرة النيل أو الصحراء أو المغرب . من هنا يبرز السؤال : أين
وكيف تقع مصر بين العروبة والافريقية ، وما العلاقة بين الوحدة
العربية والوحدة الافريقية ؟

إفريقيتان أم واحدة ؟

ابتداء ، يمكن القول : إن إفريقيا العربية هي أقل إفريقيا إفريقية
وأكثرها أو راسية بمعنى أنها بحكم فاصل الصحراء أبعد أجزاء القارة
عن مفهوم « إفريقيا السوداء » سواء طبيعيا أو بشريا ، تضاريس ومناخا
ونباتا أو جنسا وحضارة وثقافة ، وفى الوقت نفسه بمعنى أنها أكثر
أجزاء القارة بالمؤثرات الأوروبية والآسيوية فى كل تلك المجالات

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

والنواحى . وفى هذا تشترك مصر مع شمال إفريقيا أو المغرب . ولكن مصر بعد هذا هى ، بحكم الموقع أيضا ، أكثر إفريقيا أسيوية وأقلها أوربية ، بينما أن المغرب هو أكثر إفريقيا أوربية ، أقلها أسيوية .

هذا ، ومن الحقيقة ، وعملا على عزل العرب وإبعادهم عن القارة الأم ، لاسيما مصر التى لعبت مؤخرا دورا قياديا وتحريريا فى السياسة مثلما لعبته قديما فى الحضارة ، حاول الاستعمار أن يمزق وحدة القارة التضاللية ضده . فزعم أولاً أن الصحراء الكبرى فاصل طبيعى باتر كالمحيط ، يقسم القارة إلى قارتين : إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء : أو إفريقيا البيضاء (أو السمراء أحيانا) و إفريقيا السوداء ، أو أخير إفريقيا العربية وإفريقيا النجية . باختصار ، صك الاستعمار ، أو بالأحرى استغل ، ثنائية أساسية فى القارة هى ثنائية العرب - الزنوج ، وبها حاول أن يجب أى وحدة إفريقية .

والنظرية ، التى تكاد تبدو وكأنها الوجه الآخر لنظرية الاستعمار الأخرى عن ، وحدة البحر المتوسط ، ، تنتهى إلى خلق تعارض مقصود بين فكرتى الوحدة العربية والوحدة الإفريقية . وهى تصورهما كأنهما خطان متعامدان ، واحد بالعرض والآخر بالطول : إذا قلت

بالوحدة الإفريقية شطرت الوحدة العربية ، وإن أنت قلت بالوحدة العربية مزقت الوحدة الإفريقية . ومن ثم تبدو النظرية كلها سلاحا ذا حدين بل متعدد الحدود . يمزق كل شيء وفي كل اتجاه سواء في العروبة أو في إفريقيا ، وهذا بالضبط هو الهدف الأساسي سياسيا .

وحدة عمل فحسب

غير أن القضية بهذه الصورة هي في الحقيقة قضية متطرفة ومغرضة . فمن ناحية لم تكف: المؤثرات العربية أو المصرية عن اختراق الصحراء منذ فجر التاريخ القديم . ومن المبالغة لا شك أن نتكلم عن الصحراء كمحيط رملي في عصر الطيران . ومن ناحية أخرى . وهذا أساس كل خلط وخطأ ، فليس المقصود بالوحدة الإفريقية إلا ، وحدة عمل ، ، وحدة تضامن في المجال الدولي سياسيا واقتصاديا وحضاريا مواجهة لضغوط الاستعمار المشتركة . وحدة إفريقيا ، يعني ، هي أساسا وحدة ضد - استعمارية ، لا أكثر ولا أقل .

أما خارج هذا فلا وحدة لإفريقيا إلا الوحدة الجيوديزية ، أي كتلة من كتل الأرض الرئيسية مما نسميه القارات . وبين هذين القطبين

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

القاصيين ، الوحدة ضد الاستعمارية والوحدة الجيوديزية . فإن أحدا لم يزعم أن إفريقيا وحدة أو أن إفريقيا وحدة من أى نوع كان ، سواء طبيعيا أو بشريا . مناخيا أو نباتيا أو جنسيا أو حضاريا . والافريقيون ، بمعنى الزوج ، من جانبهم لا يعتبرون مفهوم إفريقيا أو وحدة إفريقيا إلا فى حدود وإطار إفريقيا الزنجية . وبينما ينظرون إلى أنفسهم كشىء واحد على العموم ينظرون إلى العرب كشىء مختلف تماما على الخصوص . وهم فى هذا يفعلون تماما مثلما يفعل العالم الخارجى بعامة (١) .

وواقع الأمر أن فلسفة الاستعمار فى ثنائية القارة من أجل تمزيقها فضاليا ليست إلا حقا يراد به باطل . ولقد كان خطأ أن انعزلت مصر قبل الثورة (وغيرها من الشقيقات العربية الافريقية) عن إفريقيا ، ولو أن ذلك كان بفعل الاستعمار الجاثم فوق الجميع . وكان طبيعيا جدا بعد ذلك أن تندفع مصر المتحررة إلى إفريقيا تحمل مشعل التحرير فى الخمسينات والستينات . ولا جدال أنها نجحت فى ذلك نجاحا باهرا ، بل لعله أكبر نجاح لنفسها فى السياسة الخارجية والدولية ، ولا يكاد يختلف

(١) حمدان ، إفريقيا الجديدة ، ص ٢٩٣ - ٢٩٧ .

أحد على أن نضال مصر كان أكبر عامل منفرد في تحرير القارة . لقد
اكتشفت مصر ، بحق ، بعدها الافريقي الأصيل ، وعلى هذا الأساس
نصرفت .

لكن الغريب هنا أن الاستعمار نجح في أن يضلل أبناء القارة في
الاتجاه المضاد . فکرد فعل لفلسفة الاستعمار المتطرفة في تمزيق نضال
القارة التحرري ، ظهرت بين بعض زعماء القارة الجدد ، خاصة بين
الراديكاليين المتشجعين الذين تبناوا عنصرية جديدة مضادة أو مقلوبة ،
ظهرت دعوة دواية إلى ، الوحدة الافريقية ، لا كوحدة موقف وكفاح
ضد الاستعمار أو ضد التخلف ، من أجل التحرير أو التقدم ، وإنما
كوحدة سياسية دستورية من أجل خلق ، دولة ، إفريقية واحدة تشمل
كل القارة .

وإذا كان من الخطأ أن مصر قد انعزلت أو عزلت عن القارة في
الماضي ، فقد كان خطأ أكبر احتمال تورطها في مثل هذه الدعوة
الكاسحة الفضاضة ، إذ أن أسوأ خطر وهذا حين اتخذت دعوة الوحدة
الافريقية منعطفا شبه هيستيري أرعن أيام نكروما . فوحدة مثل هذه ،
على أي مستوى كانت ، غير واقعة أو متصورة على الإطلاق ، تقع
خارج العلم تماما ، وهي من ثم مرفوضة شكلا وموضوعا .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

بين الوحدة العربية والافريقية

تشخيصا أو تلخيصا للموقف بإيجاز ، كان الاستعمار قد باعد بين مصر (والعرب) وبين إفريقيا أكثر مما ينبغي ، فجاء التحرير فقارب بينهم - كرد فعل عكسي وعلى طرف النقيض - أكثر مما ينبغي . فى الأولى كان انفصال أكثر من اللازم ، وفى الثانية حدث اتصال أكثر من اللازم حين أخذ شكل الوحدة الافريقية بالمعنى المنحرف الذى اصطلحه بعضهم . ولكن هذا الانقلاب من النقيض إلى النقيض كان مرحلة عاطفية متطرفة ليست غير شائعة فى مراحل الاستكشاف والتعارف والتقارب .

غير أن صدمة الحقيقة والواقع لم تلبث أن بددت الأوهام والمزايدات مثلما أزاحت المناقشات من قبل ، واستقر البندول كما هى القاعدة دائما على التركيب بعد التقرير فالنقيض ، أى على الحد الأمثل للعلاقة ، وهو الوحدة بمعنى التضامن الإفريقى . سقطت بذلك انحرافة الوحدة الدستورية المزعومة .

وبالفعل ، لحسن الحظ ، ولأنه - في السياسة كما في الحياة - لا يصح إلا الصحيح ، فقد نهاوت هذه الدعوة الطائشة المتهاففة في بضع سنين حتى اختفت نغمتها تماما . والواقع أن حركة الوحدة الأفريقية بمعناها الصحيح لا تعدو وحدة تضامن ضد الاستعمار ، وهي بهذا المعنى جزء من حركة وحدة العالم الثالث وسائر تجمعات الجنوب ، العالمي . وعلى هذا الأساس فإنها في صميمها وجوهرها فترة تعشيش nesting period ، مريحة للجميع ورفقة طريق في رحلة التحرير وإثبات الذات ، تتساند وتتساعد خلالها ضد العدو الاستعماري المشترك ، ولكنها في النهاية رحلة عابرة ككل رحلة ، بعدها تنصرف كل جماعة إلى مصالحها المحلية أو الإقليمية وكياناتها الذاتية . وهكذا بالفعل كان . (١)

بهذا عادت الوحدة الأفريقية وكما بدأت وكما ينبغي ، وحدة عمل ، فحسب ، بينما ظلت الوحدة العربية ، وحدة كيان ومصير ، .

(١) حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ١٩٨٣ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

الأولى لا تستهدف الوحدة الدستورية ، والثانية جوهرها الوحدة الدستورية والاندماج السياسى . بصيغة أخرى العرب أخوة وأشقاء ولكن الافريقيين جيران وأصدقاء ، علاقة مصر مع العرب علاقة قرابة حيث علاقتها مع الافريقيين حسن جوار .

من ثم فإن الوجدتين العربية والافريقية هما من مستوى مختلف تماما ، وهو اختلاف فى النوع لا الدرجة ، جذرى لا فرعى ، ومن ثم فلا تعارض بينهما . ولهذا فليس على مصر جناح أن تولى وجهها شطر إفريقيا وبعدها الإفريقى كما فعلت دائما ، وليس لها أن تنسى أنها بوابة القارة وحارسها فى الشمال الشرقى ، ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الآسيوى الإفريقى ، بمثل ما أن إفريقيا هى الظهير الضخم لمصر وأن مستقبلها مرتبط بمستقبلها فى الصراع العالمى ضد الاستعمار ، كل أولئك دون أن تضعف عرويتها فى أى معنى .

ومن هنا ، بالمقابل ، نرى أن ما يطالب به البعض فى وقت ما من النص دستوريا على أن مصر جزء من إفريقيا بمثل ما ينص على أنها جزء من الأمة العربية ، إنما هو قياس مع الفارق وينبع من منظور خاطئ يضع الوحدة العربية على نفس مستوى الوحدة الإفريقية فإن

ننص على عروبتنا في الدستور ، وهو تعبير سياسي عن
مضمون قومي ، ومن ثم هو أمر في موضعه السليم . أما أننا جزء من
إفريقيا فحقيقة جغرافية بديهية مجردة لا يستتبعها بالضرورة أي التزام
سياسي أو قومي حتمي ، ولذا فمكانها الطبيعي في كتاب الجغرافيا
ولكنها جديرة بأن تبدو في الدستور فضولا وتزييدا لا محل له .

سياسة مصر الإفريقية

وعلى المستوى التطبيقي : فلا مفر بل لابد أن يكون لإفريقيا مكان
هام في السياسة المصرية . أولا : لمصلحة الاقتصاد والتنمية والتقدم
المصري نفسه نظرا لثراء إفريقيا النادر بالموارد والخامات والأسواق
والامكانيات المتزايدة التي تتكالب عليها الدول المتقدمة الآن بل حتى
بعض الشقيقات العربيات خاصة البترولية . ثانيا ، لضمان الأمن
المصري وتأمين ظهرها الإفريقي ، حيث لا ينبغي أن تترك مصر
إفريقيا فراغا سياسيا أو فراغ قوة يملوه الاستعمار الجديد أو القوى
العظمى ويحاصرها به من الخلف . ثالثا ، لمواجهة التسلل أو التوغل
الاسرائيلي في إفريقيا ومحاصرة أخطبوطه وطرده من القارة حتى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأهملنا الأربعة

لا يكسبها لصفه أو يؤلب دولها ضد مصر والعرب والقضية الفلسطينية .
وتلك بالدقة حدود العلاقات العملية بين مصر وإفريقيا - وحدود
لا شك هناك للبعد الافريقى فى كيان وتوجيه مصر . وهى حدود ،
كما ينبغى تحقيقها ، لا ينبغى تجاوزها . ولحسن الحظ فلقد انتهت
إلى الأبد فترة المثالية الجامحة الهيستيرية فى العلاقات
الافريقية ، واستقرت الآن على مستوى عقلانى ومعقول أكثر ،
أى تم ، تطبيعها normalization ، تقريبا .

مع ذلك فإن البعض يشعر أن دور مصر الافريقى الحالى مضخم
ومبالغ فيه ما يزال ، إن لم يكن مفتعلا إلى حد ما لأسباب تكتيكية
وتعويضية ، وأن هذا على أية حال عارض سوف يقل مستقبلا إلى أن
يأخذ حجمه الطبيعى ، هذا إن لم يكن قد بدأ فعلا ، إذ من الواضح تماما
أن مصر أخيرا اتخذت سياسة إفريقية أكثر حذرا وتحفظا أو أقل اندفاعا
وغلواء منها فى السابق .

كذلك يشعر البعض الآخر بأن علاقتنا مع إفريقيا أو علاقات
إفريقيا معنا لا تخلو من حساسيات وعقد مركبة وأن فيها شيئا من النفاق
المتبادل وأكثر منه من اللاواقعية . وفى وقت ما بدا أن إفريقيا أو أجزاء

منها تلعب معنا لعبة المضاربة وتوازن القوى بين العرب وإسرائيل . فى محاولة انتهازية مكشوفة لأن تنتزع لنفسها أكبر مكاسب ممكنة من الطرفين على السواء . ولكن من الانصاف أيضا أنها عادت فصحت موقفها كثيرا أثناء حرب أكتوبر . كذلك فإن أرياح البترول الهائلة بعد هذه الحرب جذبت إفريقيا أكثر من أى وقت مضى إلى المعسكر العربى المنتصر والمتخمس ، ولو أنها عادت بعد ذلك ، تغازل ، اسرئيل ، وهكذا . وأخيرا ، ففى خضم هذه العلاقات الجديدة لضغوط الأكثر واقعية ومادية أو نفعية ، بدأت العلاقات العربية - الإفريقية دول حديثة النشأة ضعيفة التكوين للغاية ، فإنها بعيدة عن الاستقرار تماما . والصراعات داخلها وفيما بينها وحولها لا حدها ، وبالتالي فإن التدخلات الأجنبية الاستعمارية لا تتوقف . ومن ناحية أخرى ، فلأن سياسات الدول العربية هى الأخرى قد تعارضت وتصادمت فى الآونة الأخيرة وانقسمت ما بين الكتلتين العالميتين ، مثلما غيرت مصر نفسها موقعها السياسى بينهما جذريا ، فلقد ازدادت التناقضات والمجابهات بين مصالح وسياسات الجميع فى إفريقيا .

وفى النتيجة ، ولأول مرة ، بدأت تظهر جرثومة تعرض وتناقض

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

ما بين الوحدة العربية والوحدة الأفريقية . فمن المظاهرات اللافتة حاليا أن دولاً إفريقية ، مثل ليبيا مع تشاد ، والمغرب حول الصحراء ، أو أزمات بعض الدول الأفريقية مثل صراع الصومال وإثيوبيا وإريتريا وإثيوبيا ، والصراع في زائير ... إلخ .

ففي مثل هذه المواقف المربكة الشائكة المتشابكة . قد تجد مصر نفسها . سواء بحكم المصالح أو المبدأ . في صف الدولة الأفريقية ضد العربية أو العكس . فهل تجوز الأولى ؟ - والعربية أولاً والإفريقية عاشرا . وإن كانت الثانية ، أفلا يكرس هذا ثنائية الوحدتين والقارة ويوسع الهوية الكامنة فيهما ؟

على أية حال ، دعنا نأمل أن تكون مثل هذه المواقف مرحلة عارضة وعابرة في تاريخ القارة . غير أن الدرس الواضح أن على مصر ألا تتورط في إفريقيا وحروبها واضطراباتنا وصراعاتها المحلية والدولية . ومن حسن الحظ أنه قد أعلنت مؤخراً أنها ، لن تلعب دور رجل البوليس في إفريقيا ، (١) . ليكون حسن الجوار إذن وصدافة الجميع

(١) الأهرام ١٨٠ - ٨ - ١٩٧٨ ، ص ٣ .

بقدر الامكان شعار سياسة مصر الافريقة ، ولتكن المساعي الحميدة فقط
هى ترجمته العملية .

لتكن علاقتنا مع إفريقيا وثيقة قوية فى الاقتصاد والتجارة
والتبادل ، فضلا عن التعاون السياسى فى المسرح الدولى . والأروى ،
لأن إفريقيا قارة المستقبل فى الخامات والاستثمارات ، حتى لا نظل
أوربا والغرب دائما الوسيط بيننا وبينها . والثانية ، لأننا مازلنا ضعافا
بالمقاييس إلى القوى العالمية ، وحتى لا ينفرد الآخرون بالقارة .

ولكن أبعد من هذا لا يجوز ولا يجدى ، ولا سياسة ولا ثقافة
ولا حضارة . فنحن فى الواقع أقرب إلى أوربا والغرب فى هذا كله منا
إلى إفريقيا . بل لعل درجة قربنا من إفريقيا الحقيقية هى أقل ما فى
العالم إطلاقا . وما من شك بالمقابل أن أوربا أقرب إلينا جنسا وحضارة
ودينا وثقافة وتاريخا فضلا عن المسافة الجغرافية البحتة . تلك حدود
جغرافيا ، ومن يتعد حدود الجغرافيا فقد فقد التاريخ .

الفصل الثالث

البعد النيلي

النهر المؤشر

لأن مصر هي النيل ، أو أن النيل هو مصر ، فما من ربط لمصر بخارجها أقوى وأعمق من النيل ، وما من منطقة خارجية يمكن أن ترتبط بها مصر أكثر وأشد من تلك التي يربطها بها النيل . ولهذا كان حقا وحتمًا أن يجيء البعد النيلي في طبيعة أبعادنا الخارجية أولا ، ومحوريا في بعدنا الأفريقي على وجه التحديد ثانيا .

وابتداء سيلاحظ أن نمط الصعيد الخطي الطولي ليس ، اقتصاديا ، من حيث العمران أو المواصلات أو الانتاج ، لأن كل هذه المجالات إنما تخدم الحد الأدنى من السكان إذا اعتبرنا وحدة المسافة . ويكفي أن نعلم أن الاثني عشر ألف كيلو متر مربع ونيفا التي تؤلف مساحة الصعيد

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

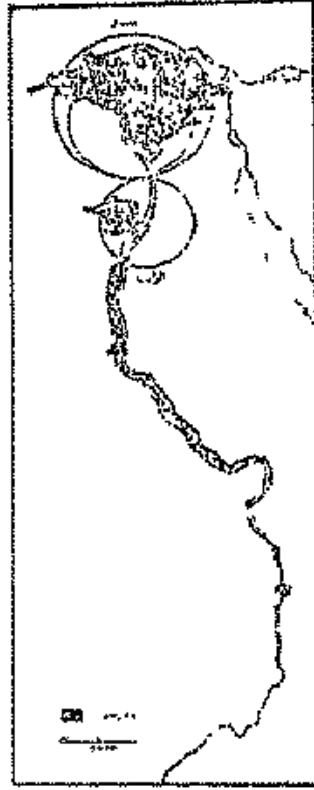
وتمتد نحو ١٠٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب يمكن أن تستوعبها دائرة
مكتنزة قطرها ١٢٥ كم فقط . شكل جغرافية الوادى إذن قد لا يكون
الأمثل للجغرافى الاقتصادى ، ولكنه للسبب نفسه مثالى للاستراتيجى
ولأغراض الحضارة والتاريخ .

فالصعيد الخطى هو فى الحقيقة الذى وسع رقعة مصر الكلية بأن
أضاف إليها الرقعة الكبرى من غلافها الصحراوى . ولو كان الصعيد
ملموما كالدلتا لكانت رقعة مصر الكلية أصغر مما نعرف بكثير . وهذه
نقطة بدئية ولكنها هامة جدا ، كما أنها أوضح من أن تستدعى
التطوير وإن تحمته بالتأكيد .

وأهم من هذا أو لا يقل أهمية أن الصعيد الخطى هو الذى أعطى
لمصر عمقا حضاريا فى إفريقيا ، فهو سهم مرسل نحو قلب القارة حمل
حضارة مصر وثقافتها ، مخترقا الصحراء فى مضاء ونفاذ يتحاشى
بهما بقدر الامكان الميكانيكى الاحتكاك بحواجز الصحراء العديدة . ولو
قد كان الصعيد ملموما كالدلتا ، تغير بلا مرأ تاريخ علاقة مصر
بالقارة ، ولكانت أسيوية أكثر مما هى الآن . ولأعطت ظهرها للقارة
الأم بصورة أو بأخرى .

وعلى العكس من هذا ، لو أن نيل النوبة بثنيته المسرفة فى

دكتور جمال حمدان نحن ... وأبعادنا الأربعة



- مصر الخطية ودوائرها المساحية .
يمتاز المعمور المصري بالكشل الطولى
الشديد ، طول بلا عرض ، كالنمط الشبلى
نحو ١٢٠٠ كم ، والمساحة ٣٥ ألف كم^٢ ،
ولكنها يمكن أن تضغط فى دائرة يقل قطرها
عن ٢٠٠ كم . هذا النمط ليس اقتصاديا من
وجهة الانتاج والنقل والادارة ، ولكنه بالغ
الحيرة من الناحية التاريخية ، فهو الذى منح
مصر عمقها الافرقي .

الالتواء ، مضى مستقيما مباشرا
لكان رباطا أوثق ولكانت مصر أكثر
إفريقية وأقل أسيوية مما هى الآن .
ومع ذلك كله فقد كانت الصحراء
أبدا عائقا خطيرا فى سبيل تعميق
هذا البعد اللبلى وتمديده سواء غربا
أو جنوبا ، كما كانت جنادل اللبل -
التي يعدها البعض المرشح الجنسى
أو الحد الشمالى للمؤشرات الزنجية
أو المتزنجة فى حوض النهر - عقبة
أخرى فى طريق الشريان الوحيد
إلى قلب القارة . ولهذا كانت حدود
النفوذ المصرى لا تتعدى غالبا
الشلال الثانى أو الثالث وأحيانا
الرابع ، ولو أن النفوذ الحضارى
توغل كثيرا حتى إثيوبيا القديمة .
إلى حد أو آخر ، نستطيع أن

نفهم من هذا أن الشلال ، متضافرا مع الصحراء ولفة النهر ، كان لمصر بمثابة إقليم السد بالنسبة للسودان : كلاهما أغلق الطريق وأوقف التقدم نحو الجنوب وحرقه بالضرورة نحو الشرق : إلى الصحراء الشرقية فالبحر الأحمر في حالة مصر ، إلى الحبشة بدل النيل ، وضاعف من درجة هذا الانحراف فعل الرياح الشمالية العاتية في القطاع الشمالى من البحر الأحمر ، وهذا ما يفسر أن موانئ مصر الجنوبية عبر التاريخ قامت على البحر الأحمر وليس على جبهة السودان .

من المحتمل إذن أنه لولا سد الشلال المركب هذا لعرف الفراعنة منابع النيل ربما ، ولتوغلوا إلى أعالي النيل نفوذا ووجودا بدلا من أواسطه على الأكثر ، ولتغلب توجيه مصر النيلى والافريقى على توجيهها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى وآسيا المدارية ، ولكانت بذلك أكثر إفريقية بكثير وأقل أسيوية مما هى عليه الآن . ولكن ، من الناحية الأخرى ، فإن بفضل أو بفعل سد الشلالات أولا وإقليم السد ثانيا ، أخذت مصر من النيل هيدرولوجيته دون إفريقيته ، ومن إفريقيا أرضها دون أنثروبولوجيتها . اختصارا ، كما سبق ، أخذت زيد المداريات دون زيدها .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وحدة ولكنها فضفاضة

وعند هذا الحد لا مفر لنا من أن نلاحظ أن حوض النيل ، على وحدته الطبيعية الأساسية العامة والعريضة مورفولوجيا وفيزيوغرافيا ، يمثل إلى حد ما وحدة أقليمية مفككة نوعاً . ليس فقط بحكم اتساع مساحته الهائلة كشبه قارة تقريبا ، ولكن أيضا بحكم الفواصل والعقبات الطبيعية والعريضة التي تقطعه من الداخل مثلما ويقدر ما تكتنفه من الخارج . فإذن كانت هذه الفواصل هي التي تميز الحوض ككل من الخارج كجزيرة متميزة في القارة ، فإنها تتركه هو نفسه من الداخل أشبه ، بجزيرة من جزر ، ، أي أشبه بمجموعة من الجزر المتعددة المتميزة داخله كالأرخبيل الأرضي قليل الوحدات ضخمة الأحجام .

ففي النهر نفسه هناك الجنادل والشلالات في النوبة شمالا ، ومستنقعات السدود في السودان جنوبا ، وفي الحوض العريض من حول الصحراء في شمال السودان شمالا ، والهضاب الجبلية في الحبشة والبحيرات جنوبا من ثم يبدو الحوض في مجمله كمجموعة من الوحدات الاقليمية المحلية المنفصلة عن بعضها البعض إلى حد أو آخر ،

بحيث تكاد تؤلف سلسلة غير متصلة الحلقات تماما من الجزر الإقليمية المنعزلة بقدر أو بآخر .

فعدا جزيرة أو شبه جزيرة واحدة مصر العظمى في الشمال ، فإن السودان الحقيقي الفعال يبدو هو الآخر كجزيرة واسعة الرقعة تنتفح بامتداد النطاق السافاني الأوسط وتستقطب حول خط النيل الطولى الأصغر ولكن الأكثف . ولقد كان هذا بالفعل هو قلب السودان التاريخي في العصور الوسطى منذ مملكة الفونج وسنار ، وما زال كذلك إلى حد بعيد في السودان الحديث بأرض الجزيرة وامتداداتها الأحدث . كذلك كله يتحدد بثلاث السودان الأوسط ، يبدو كجزيرة فسيحة للغاية ، مخلخلة نسبيا ، ولكنها معزولة أساسا في عمق القارة بين الثلاث الصحراوى والثلاث الغابى جنوبا ، فضلا عن كتلة الحبشة شرقا .

هذه الكتلة الأخيرة ، بدورها ، كانت تشخص أو تشمخ بنفسها إلى أقصى حد كجزيرة جبلية رأسية أشبه بالقلعة المعزولة عن السهول تحتها وعن النهر شمالها والبحر يمينها . وهى عزلة محكمة ومحكمة إلى حد البديهية الجغرافية ، بحيث يكفى كمؤشر إليها أو رمز لها هذه التسميات الشائعة : سقف القارة ، وسويسرا إفريقيا ، وإلى حد أقل نسبيا ولكنه

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

ليس مشجعا كثيرا ، لا يبقى سوى أقصى منابع النيل فى هضبة البحيرات . فهى تشبه حوضا مقعرا ضحلا . مستديرا مغلقا على نفسه . مغلقا على كتف حوض النيل ولكنه مرتكن على حافة هضبة إفريقيا الجنوبية الضخمة وأدخل بالتأكيد فى إطار إفريقيا السوداء .

تلك الجزر الأربع الرئيسية ليس ثمة بينهما ، بالمقابل ، إلا خيوط دقيقة أو متقطعة أو واهية للربط هنا وهناك على الأكثر . مثال ذلك خط أو خيط اللبنة المقسمة بين جزيرتى مصر والسودان فى الشمال ، ومساعد ومنازل الأودية النهرية العميقة الغائرة بين السودان السهل وكتلة الحبشة الشامى ، أو أخيرا مسارب ودهاليز النهر المختنقة داخل مستنقعات السد الكثيفة بين السودان وهضبة البحيرات .

جزيرة من جزر إذن كان حوض النيل جملة . وفى مقابل وحدته المورفولوجية العريضة كحوض نهر وبالرغم منها ، كانت تلك الوحدة بالتالى هشة ضعيفة نوعا من الناحية الوظيفية فيها شىء من تفكك وتوجهات منفصلة مستقلة وشيد باختصار ، النمط كله طارد مركزى كثر مما هو جاذب مركزى . ومع ذلك ، وهذه هى النقطة الهامة ، فإن مصر على أية حال نجحت بديناميكية تذكر وفى ميكانيكية خاص فى

أن تتحدى هذا التفكك وتفتح العقبة هنا وهناك لتحقيق أكبر قدر ممكن عمليا من وحدة الحوض . فكان الاتجاه جنوبا مطلقا أساسيا من منطلقاتها التاريخية بحيث وصلت إلى أعماق الحوض منذ وقت مبكر نسبيا . (١)

الاتجاه نحو الجنوب

ويقدم لنا حزين نظرية مناخية ثابتة تفسر جزئيا ميكانيكية التوجيه الجنوبي الدلي لمصر القديمة كمكمل حيناً أو كبديل حيناً آخر للترجيه الشمالى الأسوى . فهو يقترح أن الذبذبات المناخية التى عرفتھا مناطق شمال المشرق العربى حتى العصور الكلاسيكية - والتي لا ينبغي بالضرورة أن تكون بعيدة المدى طبيعيا - كانت تسبب الاضطرابات والقلق فيها وتطرد البدو فى غارات تشل مجرى التجارة بين مصر والبعد الأسوى من ناحية ، كما تغريهم بغزو مصر فى شمالها خاصة من ناحية أخرى . فعندئذ تنسحب القوة المصرية إلى معقلها التقليدى فى الجنوب فى الصعيد ، لا سيما حول طيبة حيث تأخذ صيغة دينية تحفزها تلقائيا إلى أرض البخور والمر والعطور - بونت والصومال ،

(١) حمدان ، إفريقيا الجديدة ، ص ٣١٨ وما بعدها .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

فيسود التوجيه الجنوبي ويتبلور البعد النيلي الأفريقي (١) .
ومما كان يساعد لا شك على انتشار نفوذ مصر جنوبا ، قرب طيبة
من الجنوب ، وهي المدينة الكبرى التي ظلت طويلا عاصمة وطنية .
والواقع أن موقع طيبة الجنوبي المتطرف جدا في مصر لا يمكن إلا
أن يكون مؤشرا ، ومفسرا أيضا ، للبعد النيلي في توجيهها منذ القدم .
على أن الاتجاه الجنوبي لمصر لم ينقطع طوال العصور القديمة
وبعدها . فمذ البداية عرف الفراعنة شعوب الواوات واليام والمازوى أو
الماجوى (والأخيريون هم البجا ولعله تحريف للاسم القديم) . وليس
معروفا من هم هؤلاء الأقوام والجماعات بالضبط . ولكنهم جميعا من
سكان كوش ، ولو أن هذه بدورها غير واضحة الحدود فيما عدا أنها إلى
الجنوب القريب أو البعيد من مصر .
والأرجح أن هذا كله يشير إلى شمال السودان من النوبة حتى
إثيوبيا . يبدو أن تلك التخوم الجنوبية هي نفسها أرض « النهر » عند

(1) S . A . S . Huzayyin, Arabia and the Far East, Caio, 1942, P. 30 - 31

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

المصريين القدماء وإقليم ، المريس ، فى العصر القبطى^(١) . وكلها تبدو تاريخيا كهوامش وأطراف على جوانب المنطقة الحضارية التى قلبها مصر ، إليها تصل مؤثراتها وعناصرها ببطء نوعا ويفارق زمنى وفيها - كما يحدث فى ميكانيزم الانتشار الحضارى وقوانين المناطق الحضارية - فيها تخضرم بعد أن تكون قد تطورت أو ربما اندثرت فى القلب نفسه ، وتبدو بذلك إلى حد ما كما لو كانت متحفا جغرافيا حيا لتاريخ مصرى انطوى .

ولقد كان هذا الاشعاع يتم كقاعدة على محاور ثلاثة كالحزمة : محور النيل أساسا ، ثم أودية الصحراء الشرقية . وطرق قوافل الصحراء الغربية^(٢) . فمصر الفرعونية اتصلت بالنوبة منذ البداية وهى فيما يظن التى أخذت النوبة الحضارة وتأثرت لغتها المصرية ثم القبطية ، بل يعتقد البعض - ربما مجرد تخمين - أن اللغة النوبية هى بقايا حفزية بشكل ما للمصرية القديمة .

(١) عوض ، الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص ٢٩٧-٣٠٠ ، نهر النيل ص ٧٠٦ .
(٢) عبد العزيز كامل ، دراسات ، ص ٦٤-٦٧ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

أيضا توسعت الدولة الوسطى فى الحملات التأديبية على النوبة
وشعب الواوات . حتى إذا كانت الدولة الحديثة كان قد تم تمصيرها جيدا
وأُسست العاصمة نباتا قرب الشلال الرابع التى تشهد أهرامها الصغيرة
فى مروي وجبل بركال على مدى النفوذ الحضارى المصرى والتأثير
به . كذلك احتكت مصر باستمرار بالماجوى (البجا) فى مرتفعات
البحر الأحمر واشتبكت معهم ومع البلمبى Blemmyes (٢) فى
معارك تأديبية إخضاعا وردا على غاراتهم المتكررة ، كما اشتبكت
معه فى علاقات حضارية وثقافية فأعطتهم كثيرا من حضارتها إلى
جانب ديانتها عبادة إيزيس (١) .

وكما صدرت مصر عناصر حضارتها وعقيدتها الفرعونية إلى
الجنوب ، كررت دورها مع المسيحية ثم الإسلام . فرغم أن المسيحية
اتخذت فى مصر شكلا خاصا بها حتى أصبحت القبطية فى معنى ما
ديانة من الديانات التى توصف بأنها « جغرافية وعنصرية » ، معاى
تحدد بإقليم معين وبشعب معين ، فإنها لم تلبث أن امتدت جنوبا
وبعيدا بين النوبة والبجا . بل لقد توطنت المسيحية وتوطدت فى النوبة

(١) عرض ، الشعوب والسلالات ، ص ٣٥٨ .

خاصة ، حيث نشأت مملكتان هامتان هما دنقلة وعلوة ، ومن الغريب أن المسيحية بعد أن هجرت في مصر ، اتخذت من النوبة معقلها على الطريق ، فظلت تقاوم المد الاسلامي طويلا حتى سقطت مملكتا النوبة في القرن الرابع عشر ، وبالمثل تخلفت المسيحية فترة بين البجا .

أما الحبشة فكانت نهاية - وقمة - الاشعاع الديني لمصر ، حيث ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية ، وحيث اعتصمت القبطية أساسا في المعقل الأخير لتصبح الحبشة أكبر جزيرة قبطية في إفريقيا بعد أن هاجرت تقريبا من الموطن الأب وتخلفت نوعا على الطريق . بل لقد هاجر بعض المصريين من القبط أثناء الحروب الصليبية إلى الحبشة التي أصبحت منذ منتصف القرن ١٣ الميلادي مهجرا ليس غير مألوف لهم . (١) وبهذه الهجرة وتلك أصبحنا نجد أن ملامح الماضي في النواة المصرية هي ملامح الحاضر على أطراف منطقتها الحضارية أو أبعادها النيلية . ومن نماذج هذه البقايا المتخلفة آلة الصلاصل الكنسية sistrn التي نجدها في الحبشة اليوم ، وهي آلة مصرية قديمة .

(١) عباس حلمي اسماعيل ، التسامح الاسلامي مع أهل الذمة في عهد الدولة الأيوبية ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، ديسمبر ١٩٦٤ . ص ٧١ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

مع الاسلام يتأكد دور مصر من جديد . فرغم أن من الثابت الآن أن تعريب السودان سبق إسلامه بكثير ، وأن إسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الأحمر أسا سبق إسلامه عن طريق النيل ، فقد لعبت مصر دورا هاما في دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان . فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الاسلام إلى السودان ، أما عقبة النوبة المسيحية فقد احتواها الاسلام وغزاها طويلا وعميقا بالانتشار الغشائى الفعال قبل أن يغزوها بالقوة الحربية . ثم انفتح الطريق كاملا .

فى العصر الحديث

وإذا كنا نرى من هذا أن تعريب السودان فى العصور الوسطى لم يكن دور مصر وحدها . فقد ظل البعد النيلى ذلك منكمشا على نفسه طويلا حتى انطلق فجأة وأخيراً فى القرن التاسع عشر أيام الامبراطورية المصرية - العربية - الاسلامية فى حوض النيل وشرق إفريقيا . وقد وصل هذا الزحف نحو الجنوب بسرعة إلى بحر العرب - الغزال ولكنه توقف أمام الاستوائية بسبب ، السد ، . ذلك لأن النيل ، الذى كان

ينبغي منطقيا أن يكون طريقا متصلا إلى قلب القارة وأعالى الحوض .
لا يلبث أن يتحول - لنفس الأسباب التي جعلته شريانا هائلا - إلى حاجز
مصمت هو السد . فاضطر المد الشمالى إلى الدوران حوله وتخطيه إلى
ساحل البحر الأحمر فى إرتريا والصومال . ولكنه لم يكن قد بدأ
بالكاد حتى ظهر له سد جديد سياسى لا طبيعى هذه المرة
الاستعمار البريطانى ، فارتد إلى الأبد^(١) . ولعل مما له مغزاه
أن السودان العربى ، إنما ينتهى عند بحر العرب ، بالذات .

وهنا سيلاحظ من الناحية السياسية أن حدود الامبراطورية
المصرية العربية الاسلامية قد تعدت حدود حوض النيل بالفعل ، وأنها
تقدمت على محورين ، النيل والبحر الأحمر . وتعتبر بذلك أوضح
تعبير عن تداخل البعدين النيلى والافريقى لمصر . كذلك تعرض
هذا البعد لمحاولات البتر أو التقليم الاستعمارية . فحاول الاستعمار
البريطانى أن ، يقلب ، الانحدار الطبيعى والتاريخى للحوض بعيدا عن

(١) هوسكز ، ص ٧٩ وبعدها ، محمود كامل ، القانون الدولى العربى ، بيروت
١٩٦٥ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

مصر . فسعى إلى فصل جنوب السودان توجيهاً له إلى شرق إفريقيا والمحيط الهندي ، وحاول تحريف وجهة السودان الشمالي نحو البحر الأحمر وبورسودان بدلاً من مصر النيل وأسوان . وكمجرد مؤشر ، فإن الخطوط الحديدية في حوض النيل لا تؤلف شبكة واحدة متصلة بين دوله ، بل مجموعة شبكات محلية داخل كل دولة على حدة ومنفصلة عن بعضها البعض . ولكن هكذا هندسها الاستعمار عن عمد بقصد التمزيق والفصل والتباعد .

مصر والسودان

ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيل لمصر دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان . فموقع الجوار الجغرافي ووحدة وادي النيل الهيدرولوجية جعلته من أشد الأقاليم التصاقاً وإرتباطاً بمصر طوال التاريخ ، شأنه في ذلك شأن الشام حيث الرابطة هي موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية ، هذه الوحدة الهيدرولوجية وهذه الوحدة الاستراتيجية . أي أن بين مصر والسودان ، كما بين مصر والشام ،

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

« علاقة خاصة ، بمعنى ما . وكلتا العلاقتين قديمة وسابقة للعروبة كما هي لاحقة لها .

ولئن انعكست هذه العلاقة في الماضي في أن الشام والسودان كانا أكثر ما ارتبطت به مصر وتفاعلت معه سياسيا وحربيا ، فليس من الصدفة أنهما هما أيضا اللذان دخلا بصورة أو بأخرى في وحدة سياسية مع مصر في العصر الحديث . ولهذا فإن السودان ومصر بين البلاد العربية هما ، كالشام ومصر مرة أخرى ، مثل التوائم بين الأشقاء .

غير أن أثقال العلاقات المتبادلة بين مصر والسودان ليست متكافئة بطبيعة الحال : فضخامة حجم مصر الجغرافى والتاريخى ، الاقتصادى والحضارى ، يجعل نسبة وزن علاقاتها وتفاعلاتها مع السودان من بين مجموع علاقاتها الخارجية أقل من النسبة المقابلة لنفس العلاقات من بين مجموع علاقات السودان الخارجية . وقد ساهم هذا جزئيا فى أن يجعل المحور الطولى اللبلى فى كيان وحياة السودان أقوى وأهم من المحور العرضى السافانى ، والتوجيه اللبلى أقوى من التوجيه نحو البحر الأحمر . كما جعل قوة جذب مصر المجاورة

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

على السودان أقوى من قوة جذب الجزيرة العربية المواجهة ، سواء في
الماضي أو في الحاضر . (١)

والواقع أن للسودان ، كما لمصر ، أربعة أبعاد أساسية تتفق مع
الجهات الأصلية الأربع تقريبا أو حتى مباشرة بحكم شكله وموقعه .
ففي الشمال يبرز البعد النيلي أو المصري بالضرورة ، وفي الغرب البعد
السافاني أو السودان الكبير بالمعنى الواسع ، وفي الجنوب البعد
الغابي أو الأفريقي بالمعنى الدقيق ، وفي الشرق البعد البحري أو
الأحمر بقدر أو بآخر .

وإبتداء فكما أن مصر حلقة الوصل أساسا بين النيل والمتوسط ، فإن
السودان هو حلقة الوصل بين العرب وإفريقيا أساسا . وكما تنفرد مصر
بهذا الدور بين المجالين ، يفعل السودان ، حيث لا نظير له فيهما عمليا
باعتبار أن موريتانيا الصحراوية أساسا لاتعد حلقة وصل حقيقية على
الجانب المقابل من القارة .

(١) حمدان ، المدينة العربية ، ص ١٧٩ ،

G. Hamdan, « Some aspects of the urban geography of the Khartoum
Com . phex », B . S . G . 1959, P, 57 .

ولكن لأن السودان الفعال ، كمصر أيضا ، جزيرة شبه منفصلة أو منعزلة في قلب الرقعة السياسية وفي داخل القارة مرتكزة على محوريها الجوهريين السافلي العرضي والنهرى الطولى ، فإنه كمصر أيضا يتنازعه الشد والجذب في الاتجاهات الأربع ، فيتوزع بدرجة متفاوتة أو متغيرة وذلك بحسب قوة وجاذبية كل منها .

فابتداء نجد أن الانحدار الجغرافى والتاريخى والسياسى والاقتصادى للسودان هو أساسا نحو الشمال والشرق أكثر منه نحو الجنوب والغرب . والشمال ، لأن هنا جاذبية مصر الفائقة بالطبع ، بينما يعزله إقليم السدود عن الجنوب القارى المجهول . والشرق ، لأن نطاق السفانا ، كدهليز أساسى أو شارع رئيسى يخطط القارة يعرضها من الأطلسى حتى الأحمر ، إنما يصب وينحدر من الغرب إلى الشرق أكثر منه العكس . بمعنى أنه كمحور للحركة كان اتجاه التدفقات البشرية عليه هو أساسا من السودان الغربى إلى السودان الشرقى أكثر منه العكس (تذكر طريق الحج وانفلاتة .. إلخ) .^(١)

من هنا وهناك كان السودان الفعال وجسم معموه الحقيقى ،

(١) عبد العزيز كامل ، فى أرض النيل ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

A.A. Kamel, « Sudan profile », B.S.G.B., 1970, P. 21et seq .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

كجزيرة منعزلة داخل شرقته ، يعطى ظهره إلى حدما للقارة في الجنوب والغرب ، وبالقدر نفسه يقطع بوجهه نحو الشمال والشرق . ومن الشمال والشرق أيضا عرب السودان وأسلم ، أى على الترتيب من مصر النيل ومن الجزيرة العربية عبر الأحمر . بالتالى فلقد كان البعد الشمالى للسودان يرادف التوجيه المصرى تلقائيا . بينما كان البعد لشرقى بحمله عبر الأحمر إلى الجزيرة العربية بصفة آلية .

وبين هذين القطبين فعلا تعاقب أو توزع اتجاه السودان الرئيسى عبر التاريخ . فإذا كان التعريب وتدفق القبائل العربية التى استوطنت نهائيا وغيرت التكوين الجئسى للسودان قد جاء من عبر البحر ، فإن دفعة الاسلام الكبرى التى منحته وجهه الدينى جاءت من الشمال عبر مصر ومن مصر . وإذا كانت الثقافة العربية قد جاءت من البعد الشرقى ، فإن الحضارة المصرية جاءت منذ القدم من البعد الشمالى .

حتى فى العصر الحالى منذ تصفية الاستعمار ، حيث قد تلعب السياسات الوطنية الضيقة أو الضحلة أحيانا دورا يفتقر إلى الرشد ، ولكن بالأخص منذ تفجر عصر البترول فى الجزيرة العربية بكل جاذبيته ومغنطسيته ولكن أيضا بكل إغراءاته وغواياته ، فإن الملاحظ أن

السودان قد يتأرجح ، حيث لا ينبغي ولا يجوز ، متذبذبا بين البعد
المصرى فى الشمال والسعودى فى الشرق . فمثلا فى فترات ما
سمى « الجفوة » مع مصر ، وكذلك فى فترات الذروة البترولية العربية
خاصة فى السعودية ، مال الثقل نوعا إلى البعد الشرقى على حساب
الشمالى . على أن هذا ، مهما يكن الأمر ، يلقى على مصر مسئولية
خاصة فى تقويم ورعاية بعدها السودانى بخاصة كبعدها النيلى بعامة .

مصر والنيل

إذا كان السودان قلب بعدنا النيلى موقعا ورقعة ، فإن أطرافه فى
هضبة الحيشة من يمين وهضبة البحيرات من يسار أو من شمال
وجنوب هى قلب منابعنا المائية ، ومن ثم قمة وحدتنا الهيدرولوجية .
ومن هنا قلن افترقت تلك الأطراف القصية الغائبة الكثير من كثافة
التفاعل والتعامل والترابط البشرى والحضارى والتاريخى ، فإنها تكتسب
خطورة حيوية فائقة إلى حد يعلو على كل تعريف أو تأكيد . ولذا يتعين
على مصر أن ترعى وتنمى وبعدها النيلى فى تلك الأطراف كشرط
أساسى لصحتها السياسية .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وبين طرفي الحبشة والبحيرات ، إذا كان لنا أن نقيم الأوزان النسبية ، فلا شك أن الثقل الأغلب يذهب إلى الأول . ليس فقط لأنه مصدر الفيضان والامداد المائي الأساسى ، ولكن أيضا لأنه الأقرب جغرافيا وبشرى والأكثر ارتباطا تاريخيا وحضاريا . فمن الملاحظ مثلا أنه بينما دخلت المسيحية إلى الحبشة من مصر أولا مثلما دخل الاسلام منها إلى السودان بعد ذلك ، فإنه لا الاسلام ولا المسيحية وصل منها إلى البحيرات .

أيضا فإذا كانت كلتا الهضبتين قلعة جبلية منعزلة على نفسها إلى حد أو آخر . فإن الحبشة ، التى لا هى حامية تماما ولا سامية كلية ، لا هى إفريقية تماما ولا عربية بطبيعة الحال . فهى وإن وقعت على التخوم بين العروبة والإفريقية ، فإنها تظل إثيوبية أولا ونيلية ثانيا وإفريقية بعد ذلك فقط . على العكس هضبة البحيرات ، إفريقية هى أولا وأساسا ، ولكنها بالكاد تعد بحيرية ، أو نيلية بعد ذلك .

وبهذه الخاتمة ، لعلنا نستطيع الآن أن نجمل خصائص البعد النيلي فى كيان مصر بصفة عامة . بعد أصيل وجوهري هو لاشك ، لم يعرف الانقطاع ولا تعرض للاهتزاز ، بل لعله زاد عمقا وقوة على

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبغدادنا الأربعة

العصور بعامة . غير أنه يغلب عليه بعد هذا الطابع الحضارى والسياسى
أساسا . وهو من هذه الزوايا يكاد يكون من طرف واحد بالضرورة وفى
اتجاه واحد أساسا ، إيجابا فى الشمال وسلبا فى الجنوب . ولكن هذا إنما
يعنى النواحي البشرية وحدها ، أما طبيعيا فهذا بعد هيدرولوجى بالغ
الخطورة بحسبانه أساس الوجود المصرى كله ، ما يمنحه تلك
الأهمية السياسية الخاصة .

الفصل الرابع

البعد المتوسطى

مصر والمتوسط

إن البحر المتوسط بعد من أبعاد التوجيه المصرى ، قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية . فالنيل إذ ينحدر شمالا ليصب فيه ، والحياة المصرية إذ تجرى مع النيل نحوه ، فإن مصر برمتها تتوجه إليه وتتطلع نحو الشمال . والبلاد إذ يطل عليه بجهة بحرية مشرفة مترامية نوعا ، وإذا يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى باعتبار الضلع الغربى مينا والجنوبى والشرقى شبه ذلك ، نقول أن البلاد بهذا لا يملك إلا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش . أى أن إحاطة الصحراء بمصر . كما بالشام والأناضول أيضا ، وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط وربطتهم

بأوربا من خلفه كما ربطتهم ببعضهم البعض وكما يرتبطون بإفريقيا وآسيا (١) . إن مصر فورا وبلا تردد متوسطية أكثر مما هي مدارية أو أفريقية . (٢)

بل إننا نستطيع أن نقول - إن جاز لنا أن نقول عن البحار : إنها تصب على الاطلاق - إن البحر المتوسط برمته ، ولكن بالأخص الحوض الشرقي منه ، يصب في مصر بالتحديد . ولننظر إلى الخريطة . إن البحر المتوسط ينتهي في آخر المطاف عند مصر ، وإن كانت هي أبعد أجزائه عن أوربا . وأى استفادة منه كمعبر إلى الشرق لا بد أن تستقطب أخيرا في مصر (والشام بدرجة أقل) . وبغير مفتاح مصر (والشام نوعا) تصبح الحركة فيه نحلية تقريبا ، ويتحول من بحر عالمي إلى بحر إقليمي على الأكثر ، أى يتحول إلى طريق مسدود .

ثم اعتبر شكل الحوض الشرقي بوجه خاص ، ترى كيف تشير كل أصابعه إلى مصر . فالخط العرضي المستقيم من خاصرة صقلية ، والطولي من رأس الشام ، يؤديان مباشرة إلى مصر ، بينما أن شبه

(1) H.B.Geore, P. 278 .

(2) Birot, Dresch, P. 459 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

جزيرة إيطاليا والبحر الأدرياتي وشبه جزيرة اليونان وبحر إيجه تتخذ كلها محورا واحدا من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، أى توازى محور البحر الأحمر ووادى النيل إلى حد بعيد ، حتى لتكاد اليونان ووادى النيل أن يقعا على محور واحد . كما توشك الملاحة من رأس الأدرياتي إذا استمرت فى نفس الاتجاه أن تؤدى مباشرة إلى مصر . وفى النتيجة فإن البحر يكاد يكون حلقة غير منظورة فى سلسلة تتراعى عبر شاطئيه .

ولا خلاف بالطبع حول اختلاف شكل وهيئة الساحلين الشمالى والجنوبى للبحر . فالأول أشد ما يكون تعرجا ، مرصع جدا بأشباه الجزر وأشباه أشباهها وبأرخبيلات الجزر ، بقدر ما يبدو الثانى شبه خطى متواضع الانحناءات والتعرجات فقير الجزر . ومع ذلك يمكننا أن ننظر إلى العالم العربى كمقابل عريض بالتقريب لجنوب أوربا على النحو الآتى : فى الغرب شبه جزيرة المغرب الكبير تقابل شبه جزيرة أيبيريا ، وفى الوسط تأتى مصر باستطالتها وتعميقها وجزيرتها المجازية فى قلب الصحراء كإيطاليا فى قلب البحر نفسه . وأخيرا فى أقصى الشرق تبقى شبه القارة أو شبه الجزيرة العربية لتقابل شبه جزيرتى البلقان

والأناضول معا . فمصر من هذا المنظور تذكر أكثر ما تذكر بإيطاليا في
حوض البحر موقعا وامتدادا وتقابلا وتواجهها ، وإن بطريقة مقلوبة .

لاشك إذن أن البحر المتوسط بعد محسوس كما هو حساس في
توجيه مصر . غير أن السؤال هو إلى أى حد . وكيف يستقر البعد
المتوسطى في وجودنا . فالمشكلة . وهي جغرافية صرف ، أن البعد
المتوسطى بعد مائى أو هو مائى أولا يليه يابس ثانيا ، وليس يابسا مباشرا
متصلا ولصيقا باليابس المصرى أو استمرارا له كما هى حال الأبعاد
الأخرى أسيوية وإفريقية أو نيلية أو عربية .

هذا ، ابتداء ، يضع البعد المتوسطى فى مرتبة أدنى بالضرورة بين
أبعادنا وفى تاريخنا بحيث يصعب أن يوضع تماما على قدم المساواة
وعلى نفس المستوى . فتوجيهنا الجغرافى أرضى أكثر مما هو مائى أو
حتى أمفيبى ، وتاريخنا برى a land history بمقدار ما أنه تاريخ
نهري وأكثر مما هو بحرى .

والمشكلة بعد هذا أيضا أن البعد المتوسطى بهذه الصورة يوشك أن
يرادف البعد الأوربى ، أو هو على الأقل يتداخل معه بشدة . غير أن
مصر أبعد ما تكون فيزيقيا عن الاتصال الأرضى بأوربا ، وإذا كان

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

المتوسط عامل وصل تاريخنا وبشرنا واقتصادنا وحركنا ، فإنه يظل
فاصلا طبيعيا جغرافيا كاملا بطبيعة الحال . ولهذا لا يستقيم تماما أن
نتحدث عن البعد المتوسطي وكأنه البعد الأوربي مثلا .

لكن البحر المتوسط ، من الناحية الأخرى ، إنما يستمد أهميته
الفائقة في تاريخنا وتوجيهنا من أنها هي أوربا بالذات التي تقع وراءه .
ومن ثم فإن مفهوم المتوسط لا يمكن أن ينفصل عن مفهوم أوربا . وليس
مجرد صدفة بالتأكيد أن كل من اتجه منا إلى البحر المتوسط أودعا إلى
الاتجاه اليه انتهى في النهاية إلى أوربا والأوربية والأوربة . غير أن
المتوسط ، بعد ، وهو واجهة مصر فحسب فيما هو ظهير أوربا مباشرة .

واقع الأمر إذن أن هناك تداخلا بين البعد المتوسطي والبعد
الأوربي ، سواء على المستوى الجغرافي أو التاريخي ، تماما كما يتداخل
بعدنا الديلي والافريقي وإن يكن على يابس واحد متصل مطرد .
فجغرافيا ، ليس المتوسط ، والبحر والحوض ، إلا جزءا من أوربا القارة .
تاريخيا . كان بعدنا المتوسطي في القديم يعنى أساسا أوربا جنوب الألب
ولكنه حديثا أصبح يشمل أوربا جميعا ، لكن بالدرجة الأولى أوربا شمال
الألب أو بالأحرى أوربا الغربية . وعلى هذه الأسس والضوابط ، وبهذه

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

والضوابط ، وبهذه المفاهيم والتحفظات . يدبغى أن نقترب من بعدنا
المتوسطى .

مصر المتوسطية ؟

ربما كان طه حسين أول وأجهر من قال بمتوسطية مصر ودعا إلى
الاتجاه إلى المتوسط ، كما لعله كان أفطن من أدرك محمولها ومؤداها
ومرادفها الأوربي . « إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى ، ككتب
هرفى « مستقبل الثقافة فى مصر » ، (١) « إن تأثير بشىء فإنما يتأثر
بالبهر المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع
شعوب البحر المتوسط » . ثم من العصور القديمة يتقدم مع تطور التاريخ
والأحداث والتغيرات ليضيف مكملا أن مصر ، وإن أسلمت بعد ذلك
ديننا وتعريب لغه ، فإنها ظلت تنتمى إلى البحر المتوسط أولا وقبل كل
شئ » .

وإذا كان طه حسين بهذا أول المتوسطيين وأوضحهم ، فلعله كذلك
كان أصرح من فطن إلى أن المتوسطية تؤدى تلقائيا وحتميا إلى أوربا

(١) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

والقوة هي ، أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لتكون لهم أندادا ،
ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها
فإن خيف على مصر من ، أن يؤدي الاتصال القوي الصريح
بالحضارة الأوربية إلى التأثير على شخصيتنا القومية وطمس ما ورثنا
عن ماضينا وعن تراثنا ، فإن الرد لديه أننا إنما ، كنا معرضين لخطر
الفناء في أوربا حين كنا ضعافا مسرفين في الضعف ، وحين كنا نجهل
تاريخنا القريب والبعيد وحين لم تكن نشعر بأن لنا وجودا ممتازا ، .
أما الآن ، بعد التحرر والتطور والتقدم ، ، الآن وقد عرفنا تاريخنا ،
وأحسنا أنفسنا ، واستشعرنا العزة والكرامة ، واستيقضنا أن ليس بيننا
وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج ، فإنني ،
، يمضى أو ينتهى طه حسين ، ، لا أخاف على المصريين أن يفنوا في
الأوربيين ، .

تلك في جوهرها هي نظرة ، ولا نقول نظرية ، طه حسين ، إن
كانت مصرية المنبع متوسطة المصب ، أو كانت متوسطة المنبع أوربية
المصب ، فإنه أساسا قد صاغها في قالب قضية أو مناظرة الشرق -
الغرب . ولعلها لهذا أدخل منهجيا في باب التوسط والاعتدال في موقع

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

مصر التاريخي والحضاري ، وإليها سنعود بالفعل في الفصل التالي
بمزيد من التفصيل والتحليل .

أما فيما عدا هذا ، وبعد طه حسين ، فلعل حسين مؤنس هو أهم من
قدم نظرية أصيلة كاملة ، مقنعة ومترابطة في بعدنا المتوسطي . محور
النظرية أن البحر المتوسط هو العنصر الأساسي في تاريخ هذا البلد .
وذلك من بين أبعاد تاريخنا التي يحددها بثلاثة هي إفريقيا وآسيا
المتوسط . وهيكل النظرية ، الذي نوجزه هنا بقدر الامكان في ألفاظ
صاحبها المميزة ، يقوم على ثلاث معطيات . (١)

أولا ، أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط تقريبا ، إذا استقرت
أمور مصر ورخاؤها عمر البحر بالنشاط . وتاريخ الاسكندرية - رثة مصر
- يوجز ويلخص تاريخ البحر المتوسط كله ، فقبلها لم يكن له وجود ككل
متربط ، ولم يظهر هو بوحدته وقيمه الكاملة إلا منذ ظهرت هي .
فالبحر المتوسط في الحقيقة بحر إسكندري ، أعطى الاسكندرية ما لم
يعطه غيرها ، وأفاد منها ما لم يفد من غيرها أيضا ، أزهى عصوره ،

(١) مصر ورسالتها : ص ١٧ - ٢٥ ، ٨٩ - ٩٨ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وهذا وذلك هو عصر البطالسة .

ثانياً ، تاريخ مصر متأثر بالبحر المتوسط دائماً ، وذلك حتى في
مراحل العزلة كالعصر التركي . ومصر ليست مفتاح عمران الشرق
الأوسط فقط ، بل والبحر المتوسط كله . فإذا أصابها الفتور أو الفوضى أو
تخلت عن مكانها فيه تأثرت دوله جميعاً بذلك .

ثالثاً ، حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت متصلة بالبحر المتوسط .
فالعصر البحري داخل في كيائها بنصيب هام . ولم يكن على مصر
شيء قدر انصرافها عن البحر المتوسط وجبهته ، فذاك كان أكبر خطأ
تاريخي ، وكل سوابب تاريخنا الوسيط وتدهور وتفتت العالم الاسلامي ثم
تعرضنا للاستعمار سببها أننا تخلصنا عن البحر المتوسط وعن رسالتنا فيه
واتجهنا بكليتنا إلى الشرق وآسيا واستغرقنا بعد واحد من أبعادنا ،
فضاعت علينا مميزات ذلك الموقع الجغرافي الهام واختل ميزان تاريخنا
فكان الانكسار العظيم . وعلى هذا فإن لمصر فراغاً في البحر المتوسط ،
عليها أن تملأه غيرها .

وموضوعياً ، لا شك أن الكثير في هذا صحيح وأكد في جملته
ويقوم على حقائق صلبة . ولكننا نخشى أنه ربما زاد نوعاً في تقييم دور

مصر النسبي في حياة البحر المتوسط وفي دور البحر المتوسط النسبي في كيان مصر (من الصعب مثلاً أن نعد البحر المتوسط بحراً اسكندريا . أو نقول عنه كما قال الرومان « بحرنا » ، بل نحن الذي دعواته بالفعل « بحر الروم ») . فعلاقة التفاعل المتبادل تأثيراً وتأثراً بين مصر والمتوسط علاقة عميقة بعيدة المدى . ولكن من بين دول البحر من لعب فيه دوراً أبرز وينفق فيه جزءاً أكبر من حياته . بل إننا جميعاً طالما أسفنا لأن مصر في الماضي أهملت البحر طويلاً وكثيراً ، حيث بدت كمتفرج على البحر يستلقي في استرخاء على الشاطئ المشمس وقد تدلت قدماء في الماء بدل أن يسبح ويمعن ويمخر فيه . ثم إن مصر ربما تتأثر بمصاير البحر المتوسط أكثر مما تؤثر فيها ، وإن كانت هي أهم حلقة تتحكم فيه . ولهذا كله تظل معطيات النظرية ، ويظل البحر المتوسط بعداً محورياً من أبعادنا ، وإن كان من الصعب أن يعد الأهم على الإطلاق .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبغادنا الأربعة

نظرية وحدة البحر المتوسط

ولكن هناك من ناحية أخرى نظرية مختلفة ومبالغ فيها . فالبعض من مثقفينا يود أو ود يوما أن يجعلنا جزءا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط . ومنهم من عبر عن هذا بالدعوة إلى أن نتجه إلى البحر وأن نعطي ظهرنا للصحراء ، فما عاد يجدى أن ننظر كما فى الماضى إلى الرمل ونحن فى عصر الماء ، عصر المحيط . غير أن هذا الاتجاه أدنى فى الحقيقة أن يكون رجعة ، تاريخية إلى نظرية سادت وروج لها الكثيرون فى الغرب . ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك .

والإشارة هنا بطبيعة الحال إلى نظرية بيرين الشهيرة عن وحدة البحر المتوسط ، الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الإغريقى ثم الرومانى حققاها بالقوة بين شاطئى البحر الشمالى والجنوبى حين كان شمال إفريقيا من جبل طارق إلى السويس بل إلى الاسكندرونه خاضعا لهما . ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد ، وسلبية من الطرف الآخر ، ولا يمكن أن تحسم علاقة .

ومن المعروف أن بعض الكتاب الاستعماريين فى عصرنا هذا

تلقفوا النظرية من جانبهم وعملوا على بعثها وإشاعتها لأهداف سياسية بعيدة وهي توجيه المنطقة ، سواء مصر أو غير مصر من دول البحر العربية ، توجيهها أوربيا يجرها إلى عجلتها السياسية أو على الأقل حتى تتطلع إلى أوربا كقابلة حضارية كذلك فقد تبنت الدعوة بعض الأقليات أو الانفصاليات العربية في بعض الدول العربية نفسها ، تلك التي حاولت أن تتخذ من المتوسطية بديلا عن العروبة أو أن تقدمها كمصل مضاد للعربية .

والواقع أن أبرز أو أخطر ما في نظرية وحدة البحر المتوسط أنها تكاد تفضل إفريقيا شمال الصحراء عن بقية القارة . والملاحظ أنه ما من كتاب تقريبا عن المنطقة إلا ويعتبر إفريقيا شمال الصحراء جزءا من ، أو امتدادا ، لأوربا . فليلر ، مثلا ، لا يرى في أوربا بمفهومها الجغرافي في الدارج وحدة بشرية فعالة وواحدة إلا إذا أضفنا إليها قدرا طيبا من الجنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا ، بحيث تضم كل إطار البحر المتوسط والأسود وقزوين (١) وعند جويليه أن إفريقيا شمال الصحراء تنتمي إلى أوربا والشرق الأدنى . أما كون فلايري في العالم العربي

(1) Peoples of Europe, op. cit., P. 6 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأيعادنا الأربعة

سوى حافة أوربا البيضاء جغرافيا وتاريخيا وجنسيا وكل شيء . ولقد رأينا كيف وزع هيجل إفريقيا شمال الصحراء بين أوربا فى ركن وآسيا فى الركن الآخر . هذا بينما يضع فيتنزجرالد القضية كلها فى اللوحة مركزة حين يقرر أن « أوربا تبدأ عند الصحراء الكبرى (١) .

ومن الناحية الموضوعية ، فلا مجال للخلاف على أن شمال إفريقيا فى معظمه هو جيولوجيا ومورفولوجيا جزء من النظام الألبى الذى يتركز أساسا على جنوب أوربا ويلف البحر المتوسط لفا . كذلك فإن مناخ ونبات البحر المتوسط يميز شمال القارة عن بقيتها جنوب الصحراء ويكاد من هذه الزاوية يضمها إلى أوربا المتوسطية . حتى من الناحية الجنسية البحتة ، فإن إفريقيا شمال الصحراء هى الشريحة القوقازية ، وبالدقة المتوسطية . الوحيدة فى إفريقيا ، وتكمل بذلك الجنس الأوربي الأبيض أو المتوسطى الأسمر على الجانب الآخر من البحر . كذلك تشارك الصفتان فى حضارة واحدة أساسا أصولا وميولا ، مثلما تشابكا فى العلاقات التاريخية إن سلما أو حريا .

(1) Africa, p. 18 .

ولا ننس قبل هذا كله وبعده وخلفه عامل القرب الجغرافي فكما
يفصلنا البحر المتوسط عن أوربا . تفصلنا الصحراء الكبرى عن إفريقيا .
بل ولما كانت الصحراء ضعف البحر عمقا على الأقل ، وأضعافه عزلا
في الواقع ، نجدنا أقرب إلى أوربا منا إلى إفريقيا بالموقع والمسافة .
فالجزء الأكبر من أوربا أقرب إلينا في مصر مثلا من حيث المسافة من
أى نقطة في إفريقيا جنوب الصحراء : قسارن سكندنافيا بسيراليوني
أو غينيا ، أو روسيا الأوربية بزامبيا أو زيمبابوي ... إلخ .

هذا عن المسافة الجغرافية البحتة أو جانب الكم إن شئت ، ولكن
الكيف أو التفاعل الاقليمي لا يقل خطورة . فتاريخيا وعلى الجملة ، فلقد
كانت إفريقيا شمال الصحراء ، بحكم هذه الصحراء نفسها . تتطلع إلى ،
وتتفاعل مع ، حوض البحر والشاطئ الأوربي بقدر ما كانت تعطي
ظهرها للقارة . ولا شك أنها أقرب في نواحي كثيرة إلى أوربا المواجهة
منها إلى القارة الأم .

من يبدأ عند من ؟

لكن السؤال الجوهرى هو : أيفصل هذا إفريقيا المتوسطية أو إفريقيا

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

شمال الصحراء عن إفريقيا ويجعل منها ملحقا لجنوب أوروبا أو تكملة لأوروبا ؟ حسنا ، ليس بالضرورة ، بل إن العكس لوارد وممكن . فإن النظرية نفسها ، وأسسها من بعدها ، يمكن أن تجعل من جنوب أوروبا ملحقا لإفريقيا .

فأولا ، إذا كانت الصحراء فاصلا ، فإن الألب فاصل كذلك . وإذا قيل إن « أوروبا تبدأ عند الصحراء » . فقد قيل بالمقابل « عند البرانس تبدأ إفريقيا » . (١) حتى مناخ البحر المتوسط الشهير هو « في مجموعه مناخ إفريقيا أكثر مما هو أوروبي » كما يخلص سيجفريد ، الذي يضيف أيضا أننا « عندما نهبط من شمال أوروبا نجد أنفسنا فجأة في حوض البحر المتوسط ، ولا نبالغ حينئذ حينما نقول : إننا إلى حد ما قد تركنا أوروبا ، (٢) .

أما تاريخيا ، فإذا كان الساحل الأوربي قد طغى سياسيا على الأفريقي ، فقد طغى الثاني على الأول قرونا وقرونا . ولقد دمج العرب حوض المتوسط ، الذي نشروا فيه حضارة كان لها سمات وطابع خاص

(1) Ripley, P. 272 .

(١) أندريه سيجفريد ، سيكولوجية بعض الشعوب ، مترجم ، القاهرة ، ص ٣١ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

لا يمحي ، دمعوه ، بالطابع العربي الشرقي ، وإن كان هذا مما ساعد
على انهيار وحدته الرومانية القديمة ووحدته اللاتينية المسيحية ، كما
يعترف سيجفريد أيضا . (١)

أخيرا ، فإن ترسع المعمور وآفاقه منذ العصور القديمة خطوة
خطوة ، أبرز أوروبا كاملة مثلما كشف عن إفريقيا كاملة في النهاية ،
وعاد كل من شاطئ البحر المتوسط يربط - والانسان حيوان برى أولا -
بظهيره القاري أساسا . وفي النتيجة فإن نظرية وحدة المتوسط لا يمكن
أن تنسلخ شمال إفريقيا عن إفريقيا أكثر مما تنسلخ جنوب أوروبا عن
أوربيتها . وحقيقة الأمر ، ببساطة ، هي أن البحر المتوسط بحر مشترك
بين أوروبا وإفريقيا . إنه بحر ، أورافريقي ، يمثل ما أن البحر الأحمر
بحر إفريقيا بعدالة .

والواقع بعد هذا أن فكرة أو دعوة ، أو إفريقيا ، المعاصرة . التي
حاولت ربط إفريقيا إلى عجلة أوروبا بطريقة أو بأخرى (٢) . ليس فيها

(١) السابق ، ص ٢٩ .

(٢) سيجفريد ، سيكولوجية ... إلخ ، ص ٣٧ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

من الصحة نسبيا إلا قطاعها المتوسطى وإلا المتوسط كبحر أورافريقي .
وأبسط دليل . كما هو أبلغ تعبير ، عن هذه الحقيقة أن فكرة الشرق
الأوسط أو الأدنى كانت دائما فى كل تعاريفها تقريبا تضم أجزاء من
أوربا إلى جانب أجزاء من إفريقيا بالإضافة إلى أخرى من آسيا .

توسع البعد المتوسطى تطور العلاقات المكانية

أما حقيقة العلاقة داخل هذا البحر المشترك . فتمو وتطور تاريخى
مرفى أدوار متعاقبة مرتبطة ارتباطا وثيقا باستراتيجية العلائق المكانية
الكبرى فى العالم القديم . فقديما كما رأينا لم تكن دائرة المعمورة الفعال
لتزيد بالتقريب عن الشرق القديم وحوض البحر المتوسط ، أما أوربا
شمال الألب وإفريقيا جنوب الصحراء فكانتا إما ضبابا وبرايرة وإما
مجاهل وبدائيين . فكان طبيعيا جدا أن يستقطب البحر ذلك العالم
لاسيما وهو يتوسطه كما يدل الاسم . كان قبلة أو بؤرة مشتركة للجميع
بما فيهم مصر . من هنا علاقاتنا الفرعونية الحضارية والتجارية بكريت
المينوية ثم باليونان وروما الكلاسيكيتين عدا الشام وقبرص ... إلخ .
فإذا استبعدنا الشام على البر الآسيوى ، فقد كانت أولى علاقاتنا

التاريخية عبر البحر مع أوروبا هي مع اليونان بالذات . ومن قبل تعرض الساحل المصرى لغارات « شعوب البحر » ، ومن بعد كان الاغريق يقسمون مصر إلى قسمين : مصر المتوسطية وهي الدلتا ، ومصر الافريقية وهي الصعيد . ومن بعد أيضا صارت الاسكندرية رأس مصر وعقل البحر المتوسط .

وفى العصر المسيحى حدث تحرك نسبى فى علاقاتنا التاريخية من روما إلى بيزنطة . فالحقيقة أن العلاقات الحضارية والتجارية الثقافية والفنية بين مصر القبطية والروم أو القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت علاقات وثيقة للغاية وشديدة التفاعل ، كما دامت عدة قرون .

أما فى العصور الاسلامية فقد أصبح البحر المتوسط بعدا حقيقيا وخطيرا فى كياننا حيث كان كل من البحر ومصر مواقع خطى وحلقات حتمية فى طريق تجارة المرور العالمية . غير أنه مرة أخرى حدث تحرك فى مركز ثقل العلاقات من بيزنطة والأناضول إلى إيطاليا بمدنها الشهيرة ، فالتحمت مصر بالبحر التحاما شديدا ، ولكن بالذات خاصرته الوسطى . وكانت الاسكندرية ورشيد ودمياط مع البندقية

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وجنوه وبيزا وسالرنو وأمالقى كالمدين المترابطة على بعد . وامتد بينها
جسر جوى بمعنى الكلمة . فكانت الاسكندرية والقاهرة موطننا دائما ،
خاصة أيام المملوكية ، لمستعمرة نشطة متجددة من تجارة المدن
الإيطالية (١) ، كما لم تنقطع السفارات بين الطرفين .

والواقع أن هذه العلاقة الوثيقة تذكرنا بتوازي محاور امتداد إيطاليا
والأدرياتي مع محاور مصر والبحر الأحمر ، ومجموعها كان يؤلف
بالفعل حلقة فى إطار ما عرف « بالسلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا ،
فى العصور الوسطى . و بالمثل كانت علاقاتنا الكثيفة مع الشام تتم
بالبحر أكثر منها بالبر . راجع ثنائيتي « بر مصر ، « وبر الشام ، . حتى
الأخطار الخارجية جاءتنا على البحر ، فأكدت الصليبيات بعدنا
المتوسطى وإن يكن عسكريا .

وإذا كان العصر العثماني قد شهد هجرة تجارة المرور العالمية ،
فإن توجيهنا المتوسطى لم ينقطع تماما ، وإنما انتقلت البؤرة مرة أخرى
أو ثالثة من خاصرة البحر إلى حوضه الشرقى أو اللقانت بمعناه الواسع .

(1) Clerget, Le Caire, t, II, P. 109 .

وحتى مع الخاصرة لم يعدم الأمر إن حلت التجارة المحلية محل العالمية ، ولو أنها كالجدول بعد النهر . والواقع أن العثمانية ربطتنا مع اللقائن ومع الأناضول أكثر مما نتصور عادة ، فقد اشتد الاتصال بعاصمة الاسلام ، إسلامبول ، وسواحل البلقان في اليونان وألبانيا ... إلخ . وانتقل كثير من مهاجري هذه المناطق الطاردة إلينا ، أو جتودها ، وأقاموا أو انصهروا ابتداء من الانكشارية حتى أرنووط وألبان محمد على .. إلخ ، وبقيت أسماؤهم المعربة تكشف أصولهم أحيانا كما رأينا . وهنا نلاحظ كيف ارتبطت مصر بالأناضول ارتباطا شديدا في مرحلتين منفصلتين ولكلها أساسا متناقضتان : مرحلة المسيحية البيزنطية ومرحلة الاسلام العثماني .

هذا ، ومع محمد على والغريب والأورية ، استمر ارتباطنا بشرق الحوض ، ولكن أضيف إليه غربه خاصة فرنسا وإيطاليا ، إلى أن انقرضت بالتدريج أو ذوت العلاقة مع شرق الحوض . ومنذ القرن ١٩ انتقل مركز الثقل في علاقاتنا نهائيا إلى غرب الحوض ، وبالأخص فرنسا . وهنا نلاحظ أن علاقاتنا بفرنسا قديمة ترجع إلى عصر الصليبيات حين كانت هي قائمتها ، إلى حد أننا منذ ذلك الوقت

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

أصبحنا نطلق على الأوروبيين عموما اسم الفرنجه ، وهى تحريف
للفرنك سكان فرنسا ومصدر اسمها . على أمن علاقاتنا بفرنسا لم تأخذ
دفعتها الحقيقية إلا منذ نابليون ثم محمد على .
ثم جاءت قناة السويس فأعادت تأكيد البعد المتوسطى فى كيان
مصر ، ولو أننا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا حققت عالمية مصر ،
التي لم يعد البحر المتوسط سوى حلقة فى سلسلتها وبالموازرة ، توسعت
علاقات مصر عبر البحر لتشمل كل غرب أوربا ، خاصة بريطانيا
بحكم الاستعمار ، ثم معظم القارة على المحور العرضى بما فيها وسط
القارة وشرقها وشمالها .

ذبذبة البوصلة

ولابد أن قد استلقت نظرنا فى هذا العرض التحريك الدائم لمركز
الثقل فى علاقاتنا المتوسطية عبر العصور . والحقيقة أن لعلاقات مصر
عبر البحر نمطا جغرافيا متحركا ولكنه شبه محدد . ففى البدء اقتصرت
العلاقات على جنوب أوربا أو أوربا جنوب الألب أو أوربا المتوسطية
بأشباه جزرها الثلاث (أو الأربع بالأصح) . وفى هذه الحدود ، فإنها
تركزت أساسا فى حوض البحر الشرقى أكثر منها فى حوضه الغربى .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأيعادنا الأربعة

وداخل هذا القطاع تحرك مركز الثقل في العلاقات من الشرق إلى الغرب بصفة عامة . غير أن هذا التحرك لم يكن مطردا بل تردد جيئة وذهابا كبندول الساعة بحيث تركز على أكثر من منطقة منه أكثر من مرة وأحيانا أكثر من مرتين .

فأولا ، في العصور القديمة ، كانت العلاقات أقوى وأشد ما تكون مع اليونان واللفانت . ولكنها انتقلت بقوة إلى إيطاليا (روما) في العصور الكلاسيكية . غير أنها عادت قارتدت شرقا إلى الأناضول (بيزنطة) في العصر المسيحي . ولكنها مرة أخرى تأرجحت بشدة لتعود إلى إيطاليا (جنوه والبندقية) في العصر العربي وعصر النهضة . ثم لم تلبث أن تراجعت أو رجعت لتستقر لثاني مرة في الأناضول في العصر العثماني .

في العصر الحديث فقط ابتداء من القرن ١٩ انتقلت العلاقات المكثفة إلى غرب الحوض ، خاصة فرنسا لا هي جنوب ولا شمال الألب بالضبط وإنما على الجانبين . وكان هذا إيذانا بتوسع العلاقات بقوة إلى ما شمال الألب ، فامتدت إلى بريطانيا أولا متممة بذلك اتجاه الحركة التاريخي نحو الغرب والشمال أو الشمال الغربي عموما ، أو على قاطع يبدأ من الجنوب الشرقي في اليونان إلى إيطاليا إلى فرنسا إلى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

بريطانيا في الشمال الغربي . وأخيرا تمددت العلاقات شمال الألب
بالمعنى الضيق لتشمل أوروبا جميعا في الوقت الحالي وإن يكن بدرجات
متفاوتات .

تلك إذن هي دورات المد والجزر في بعدنا المتوسطي ، ومنها نرى
أن بوصلة مصر الجغرافية كانت تعكس - ولم تملك إلا أن تعكس - نبض
البحر وحوضه ، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محليا .
ولعل أبرز ما كان ذلك في المدن العواصم وموانئ الساحل . فكانت
أقدارها ومصائرهما وأجرامهما تتحدد بتلك الذبذبات والاشعاعات . فإبان
الكلاسيكية خلقت الاسكندرية من لاشيء لتصبح قلب العالم الهليني
البحراني ، وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحري جبهة
الالتحام بين الظهير المصري (الهنترلاند) والنظير اليوناني (الفور
لاند) . غير أن هذا كان يتركها من وجهة الظهير أشبه بمدينة غربية
لصقت بسيف البحر المصري كما رأينا منها نبئا انبثاقيا طبيعيا .

أما في العصور الوسطى ومع علاقات البندقية وجنوه فكان لرشيد
أهمية الطريق ، حتى إذا تحول التوكيد إلى شرق البحر كانت الصدارة
لدمياط وتندس حيث لا تزال الأولى تحتفظ بآثار تلك العلاقات الشامية

فى وظائفها المعاصرة (الأثاث ، الحلويات الشامية . . . الخ) . وقد ورث محمد على هذا الوضع ، ولكنه فى اندفاعه نحو الغرب عاد أولاً إلى رشيد ، إلا أن حاجته إلى نافذة حقيقية على أوربا - كحاجة شبيهه فى روسيا بطرس الأكبر - أدت به إلى إعادة خلق الاسكندرية - مثلما خلق هذا سان بطرسبرج .

ولعلنا ، على الطريق ، نلمح فى هذه التغيرات المتعاقبة كيف تتناسب موانينا النهرية المصبية عند فرعى الدلتا على المتوسط (دمياط ورشيد) تناسباً عكسياً إلى حد معين مع موانينا البحرية خارج الدلتا (الاسكندرية وبيروزيوم أو الفرما) ، تماماً مثلما كانت موانينا المتوسطية ككل تتناسب عكسياً إلى حد آخر مع موانينا على البحر الأحمر .

البعد المتوسطى = الأوربى ؟

من هذا كله تتضح أبعاد الموقف . فلا جدال أن البحر المتوسط بعد ، وبعد هام للغاية ، فى توجيهنا الجغرافى . فهو نافذة لمصر على الشمال ، وضابط إيقاع لنبضها الحضارى والمادى . أو كما يوجز

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

بيترى ، مراحل موجات الحضارة كانت واحدة ومتماثلة في مصر وأوروبا إلى قرن مضى ، والمتوسط ومصر من ثم يؤلفان مجموعة واحدة في تاريخ الحضارة (١) .

غير أن من الواضح بعد هذا ، ربما بحكم الانقطاع الأرضى ، أن ذلك توجيه متقطع يشند حيناً ويضعف حيناً ، أى أنه مذبذب بين شد وجذب . ثم إن دور مصر فيه الآن استقبال أكثر مما هو إرسال ، وإن كانت العلاقة عكسية في التاريخ القديم . كما أن دوره هو فى كيان مصر ربما تضاعف على مر التاريخ باطراد ، وذلك لأن دور البحر المتوسط ككل قد قل نسبياً مع اتساع العالم ومنذ أصبح المحيط الأطلسى هو البحر المتوسط ، الجديد .

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوروبا المعاصرة عن طريقه فهى لا تجعل منها إلا محطة طريق أكثر منها محطة وصول . فرغم أن الجزء الأكبر من تجارتنا الخارجية وعلاقاتنا الحضارية تعبر البحر والمتوسط اليوم ، فإن نصيب دولة منها محدود إلى حد بعيد ، ومعروف كقاعدة عامة فى التجارة الدولية أن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض

(1) revolutions of civilization, p , 5 .

ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الانتاج فيه . (1)

ومع ذلك فإن وضع البحر المتوسط الحال على هذا النحو يعنى شيئاً أخطر ، فهو إنما يعنى أن مفهوم المتوسط قد اتسع بالنسبة لنا ليتجاوز حدود الحوض الجغرافية والتاريخية ليمتد إلى أوربا ، ونكاد نقول ليرادفها لأول مرة فى التاريخ . فلم يعد هناك الآن كبير فاصل أو فارق ، ومن وجهة نظرنا وعلاقتنا ، بين المتوسط وأوربا . فالواحد يؤدي إلى الآخر ، والأول يندمج فى الثانى . لقد أصبح البعد المتوسطى يعنى البعد الأوروبى ، أويكاد . .

وهذا كله ما يضع أيدينا على جوهر التقييم الكامل لمكان ومكانة المتوسط بين أبعادنا الأربعة . فبصورة عامة ، بعدنا المتوسطى حضارى أكثر مما هو طبيعى ، واقتصادى أكثر مما هو بشرى ، ويتركز فى الحوض الشرقى أكثر مما يرتبط بالحوض الغربى . وهو فى هذا قد يكون النقيض المباشر أو الجزئى للبعد الافريقى . فهذا طبيعى أكثر بينما المتوسطى حضارى أكثر ، والافريقى كذلك بشرى أكثر حيث

(1) slegfried , mediterranean , p . 197 .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

المتوسطى اقتصادى أكثر . على أن البعدين . فى الوزن الصافى ،
وربما كانا متساويين تقريبا وأقرب إلى التكافؤ .

ولعل وضع الاسكندرية فى مصر أن يكون تعبيرا اختزاليا عن
وضع مصر نفسها فى المتوسط . ولعل ما بروقد وضع يده على مفتاح
لموقف برمنه فى إلماعته العابرة جدا ولكن المعبرة للغاية عن هذه
المدينة العالمية ، التى وإن كانت تشكل جزءا رئيسيا من مصر فإنها
غريبة عنها ، . فمصر كما يقول ، هى وادى النيل . أما البحر المتوسط
وموانيه فتمثل الواجهة التى تطل على عالم مختلف قد يشكل ما كانت
مصر تصبو إلى أن تكون عليه ، لا ما هى عليه بالفعل ،^(١).

ولعل هذه الرغبة بدورها أن تكون جزءا من الرغبة الدقينة عند
كثير من مثقفينا فى أن نتوجه أو نلتصّب إلى أوربا - مقولة إسماعيل
قطعة من أوربا ، ، أو عقدة أوربا ، كما قد نسميها ، أو عقدة
الخواجة ، كما يذهب التعبير الدارج الشائع . كأنما قد وقعت مصر
أو كادت ، بطريق الخطأ ربما ، على الجانب الخطأ ، من البحر
المتوسط ، أو على الجانب الخطأ من خط الزوال العالمى للبشرية

(١) روبرت مايزو ، ص ٥

world meridian of humanity طبيعيا وبشريا وحضاريا والذي يمثله ذلك البحر في هذا الجزء من العالم . ومن هنا فلقد نجد بعض مبرر لمرادفة البعد المتوسطى للبعد الأوربى أو توسيعه إليه . فإذا كنا نتحدث عن الدائرة الافريقية ، فلم لا نتحدث عن الدائرة الأوربية ، وهى بلاريب الأقرب إلينا من كل الوجوه كما رأينا ؟

أيا ما كان ، فيبقى فى النهاية أن البعد المتوسطى بهذا المقياس ، وعلى خطورته وأهميته ، هو بعد تكميلى نوعا أو هو على الأقل لا يرقى إلى مستوى البعد الآسيوى أو النديلى الذى هو أسبق وأثبت ، وإن كان لا يقل بحال عن الافريقى إن لم يزد ، كما لا يجوز علميا أن يوضع فى مقابل العروبة أو العربية . ومن الناحية الأخرى ، فإن من المحقق أن البعد المتوسطى فى حياة مصر كان يمكن أن يكون أكبر وأخطر ، لولا أننا أهملناه كجزء من إهمالنا العام للبحر حيث استغرقنا العقلية البرية استغراقا شديدا . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا : إن دور البحر المتوسط فى مصر أقل منه فى معظم بلاد الحوض . ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بالشام أو بالمغرب فضلا عن أشباه الجزر الأوربية الثلاث .

الضوابط الجغرافية

وخلف هذا التحديد والحدود ترقد الجغرافيا . فأولا . الحوض كله

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

تطوقه وتغلفه حلقة جبالية متصلة تقطع الساحل الشرقي المختلق عن الداخل مما يجعل الأول بيئة طاردة تقذف بالسكان إلى البحر كمجتمعات أمفيبية حقا - وذلك باستثناء مصر . فهنا ، وهذا فقط ، تنكسر الحلقة وينفسخ السهل الساحلي وينفتح إلى وادي النيل الضخم . فعوامل الطرد في البر لا توجد ، بل له على العكس كل الجاذبية . ومن ثم كان نداء النهر أقوى بكثير جدا من نداء البحر .

حتى في التنظيم السياسي . مصر تختلف . فذلك الطوق الجبلي الذي يحف بالبحر ، بالجيوب الساحلية الصغيرة الممزقة والمنعزلة التي تركها أمامه ، وبالتضاريس الوعرة المقطعة التي تقع خلفه ، هو أيضا المسئول عن ظاهرة انتشار دول المدن التي ترصع جنبات الحوض منذ أقدم العصور حتى العصور الحديثة نفسها . بحيث أصبح هذا النمط من أخص خصائص التنظيم السياسي والاجتماعي للحوض وعلمنا على المتوسط ، ولكن هنا ، مرة أخرى ، وللاختلاف المورفولوجي الطبيعي نفسه ، تشذ مصر عن القاعدة . فدولة النيل الكبرى ، الوحدة السياسية الضخمة الموحدة أشد توحيد ذات المركزية البالغة ، هي بلا ريب النقيض المطلق لدولة المدينة ودول المدن المتوسطة .

ثانيا ، نجد أن كل وحدات الحوض تطل على البحر بجهة مستطيلة

مستطيلة ممدودة كالمغرب والشام مثلا ، ولكن مصر - كفرنسا في هذا الصدد - تطل عليه عموديا أو رأسيا . فالقيل - كالرون - يتعامد على البحر في نقطة تماس أكثر منه بجهة تواز ، لا سيما أن قطاعا كبيرا من قاعدة الدلتا بحيرات ومستنقعات تفصل عن البحر وتترك نطاقا من الكثافة السكانية الخفيفة إن لم يكن من اللامعمور في البراري . ولهذا ، وكما تلاحظ سمبل ، تكاد مصر تكون الاستثناء الوحيد في حوض البحر الذي يتكدس فيه السكان أساسا على السواحل مباشرة ثم تهوى الكثافة فجأة وبسرعة إلى الداخل (ص ٢٦٧ ، ٢٨١) . فسكان مصر لا يتركزون على الساحل ، بل يكاد الساحل يكون فراغا سكانيا عريضا ، وبعده فقط نحو الداخل تبدأ الكثافة السكانية فجأة وبسرعة إلى أن تبلغ أقصى سمكها في العمق ، أي عكس النمط المتوسطى تماما .

كذلك ولذلك فإن مصر - كفرنسا - لها علاقتها بالبحر ، ولكنها ليست العلاقة الوحيدة في كيانها . فكما أن فرنسا دولة بحرين ، فكذلك مصر . وكما أن فرنسا قاعدتها الأرضية الضخمة خارج الحوض ولها أبعادها في غرب أوربا الأطلسية ومشارف وسط أوربا ، فكذلك لمصر أبعاد أكثر أهمية في آسيا وإفريقيا .

ثالثا ، يلاحظ أن مصر هي أبعد وحدات الحوض عن سواحلها

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدادنا الأربعة

المقابلة الهامة وعن أوربا عامة : إنها آخر المتوسط والمتوسطيات أو المتوسطين بالطول كما بالعرض . أرسم ، مثلا ، خطا بامتداد ساحلها عليه ، تجد كل حوضه يقع شماله ، إلا هي وحدها التي تقع جنوبه . كذلك فإنها مناخيا الوحيدة في الحوض التي لا تتبع أساسا مناخ البحر المتوسط ، رغم أن الزيتون - مفتاح هذا المناخ وعلامته المميزة - ينمو في غرب وشمال الدلتا التي وحدها تمثل شريحة ضيقة متوسطية إلى حد ما . بل إن مصر هي الوحيدة المطلة على الحوض التي لا تعرف مركب الغذاء المتوسطي الشهير الذي يسوده القمح وزيت الزيتون والفواكه والنبيد . إنها باختصار متوسطية الموقع دون أن تكون متوسطية المناخ ، أو قل هي أقل المتوسطيات متوسطية .

على أن هذا من ناحية أخرى يجعلها الوحيدة في الحوض التي تنتمي إلى إنتاج مختلف أساسا ، مدارى ودون مدارى ، مما يجعلها بحاجة خاصة إلى حاصلات الحوض التقليدية (أنواع الجوز والفواكه المجففة وقمر الدين . . . الخ) ، كما يجعل الحوض بحاجة إلى حاصلاتها الحارة (القطن ، الأرز ، البصل . . الخ) . فهذا تكامل اقتصادى يوضع في مقابل الاختلاف الطبيعى وإن أتى نتيجة له .

رابعا ، وأخيرا ، وعلى الجانب البشرى ، فلعن مصر أقل أجزاء

حوض البحر المتوسط تلقيا واستقبالا للتعمير والمؤثرات الجنسية من سواحله وخاصة سواحله الأوربية . حقا لقد تسربت إلينا بعض دماء وجماليات من سواحل الحوض الشرقي ومن الساحل الشمالى الإفريقى ، ولكنها لا تقاس مثلا بما تلقاه الشام كأثر من آثار شعوب البحر قديما (الفلاسطينيين) والصليبيين فيما بعد والمارونيين بعد ذلك ، وبما تلقاه المغرب من عناصر الوندال قديما والأندلوس بعد ذلك . . الخ . إنها ، بشريا كما هى طبيعيا ، أقل المتوسطيات متوسطية . وبشريا وطبيعيا معا ، وفى قاعدة كلية عامة ، فإنها متوسطية بالموقع أكثر مما هى بالموضع . إنها البلاد الوحيد الذى يقع تماما على المتوسط ولكنه لا ينتمى إلى حوضه كتقوع اقليمى تماما .

الوزن الاقليمى والدور المستقبلى

ولعلنا فى النهاية إن أردنا أن نضع دور البحر المتوسط فى ميزان قيمنا الاقليمية أن نقرب من الحقيقة وأن نقر بها إذا قلنا أقوى بالتأكيد من دور البلطيق فى توجيه روسيا مثلا ، وأشبه بالتقريب بدور البحر المتوسط فى توجيه فرنسا . وليس هذا بالدور الثانوى ، ولو أنه أيضا ليس بالدور الأول . وعلى هذا الأساس ، وبعبدا عن دعوة التوجيه المتوسطى الأحادى unilinear التى تنتزع شريحة أو صفحة واحدة من

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

كتاب التاريخ ، وبعيدا كذلك عن دعوة المرجعة التاريخية اللاتينية التي
تضع عقارب الساعة إلى الوراء رغم أن دور البحر المتوسط في عالم
القرن العشرين يختلف جذريا عن دوره قبل الميلاد ، على هذا الأساس
فإن هناك الآن بكل تأكيد مجالا كبيرا لتوثيق وتعميق علاقات مصر
السياسية والاقتصادية والثقافية مع دول الحوض .

ليس فقط تركيدا وتعميقا لهذا البعد الحيوى الذى أهمله مصر أكثر
مما ينبغى ، ولا تحقيقا لانفتاح مصر على أكبر جبهة ممكنة فى العالم
المعاصر وتحقيقا للعالمية ، ولا كذلك لأن مصر هى رابع أكبر دوله
الأربع عشرة ، ولكن أيضا للثقل العالمى الخطير لما وراء البحر ، لأوربا
، فى السياسة الدولية والحضارة العصرية والعلم والتكنولوجيا .

فرغم كل شىء، رغم الماضى المتعس مرارا ومرارة الذكريات
أحيانا ، فإن الذى يربطنا بأوربا أقوى بكثير جدا . وعلى الأقل ، فإن
أوربا أقرب إلينا من إفريقيا ليس فقط بمقياس المسافة الجغرافية البحتة
ولكن بكل المقاييس . فتاريخيا وحضاريا وسياسيا بل وجنسيا ، فإن أوربا
هى الأقرب بلا مناقشة . طبيعى جدا ، بهذا كله ، أن نكتف علاقاتنا مع
المتوسط وأوربا .

من الناحية الأخرى ، فليس المطلوب ، ولم يكن المطلوب قط ، أن

تصبح مصر ، قطعة من أوربا ، . ولا قطاعا ولا قطيعا . ولكن من ناحية ثانية ، ليس المطلوب قطعة من أوربا ، المطلوب فقط أن تصبح مصر ، دولة شمالية ، ، بمعنى الدولة العصرية الحديثة المتقدمة . وفي هذا فلا مفر ، بل من المفيد جدا ، أن نعمق أبعادنا المتوسطية وما وراء المتوسطية أى الأوربية .

ليس هذا فحسب ، بل أيضا لأن قيام إسرائيل في حوض المتوسط ، وهو نصف عربي ، أصبح يستدعى رسم استراتيجية عربية متوسطية . أوربية عظمى لحصارها بحريا وسياسيا وماديا وعزلها عن دوله ودولها . إن الذى يفصلنا عن أوربا اليوم لم يعد البحر المتوسط ، وإنما إسرائيل . ليس البحر ، ولا الاستعمار الحديث فى القرن ١٩ ، ولا الحروب الصليبية من قبله ، هى التى تفصل مصر (والعرب) عن أوربا (والغرب) ، ولكنها هى إسرائيل وحدها التى تفصل .

إن البحر يربطنا اليوم بأوربا أكثر من أى وقت مضى فى التاريخ ، والتاريخ لم يعد عقبة فى سبيل أوثق العلاقات ، بل لعله بات حافزا ومبررا . العقبة الوحيدة هى إسرائيل . وبإزالة هذه العقبة يمكن أن تتخلق أورابيا Eurabin . كم تسمى - حقيقية جدا وفعاله إلى أقصى حد

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبسادنا الأربعة

على كل المستويات المادية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية
والحضارية والثقافية ، تستطيع أن تشكل وحدة حقيقية أكثر قطعاً من
فكرة أورافريقيا بل ربما حتى أوراسيا . أو بالعكس . وعلى الأقل . فإن
انبثاق مثل هذه الوحدة جدير بأن يساعد على احتواء العقبة الاسرائيلية
حتى التلاشى وإلى نقطة النهاية وخط الزوال .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

الفصل الخامس

تفاعل الأبعاد

الأبعاد البحرية

كيف تفاعلت أبعاد مصر الأربعة ، خاصة الآسيوى والافريقى ، فى شخصية مصر ؟ قد يكون من المفيد أن نفرغ أولا من الأبعاد البحرية التى تأتى فى المحل الثانى بالضرورة إذا ما قررنت بالأبعاد القارية . والملاحظ ابتداء أن أحادية البيئة المصرية وفقرها النوعى فى المعادن والأخشاب قد دفعت بمصر إلى البحار وما وراء البحار . وفى نفس الوقت مكنها موقعها الأوسط من ذلك الانطلاق . والمجال البحرى المصرى يتحدد تقليديا بطبيعة الحال بالبحرين المتوسط والأحمر ، الأول بحرنا الشمالى : ، بحر الشمال : ، والثانى بحرنا الشرقى .

بين البحرين

والثقل الأكبر في الأهمية يذهب بالطبع إلى المتوسط. بمعنى أن دوره في توجيه مصرونشاطها التاريخي أكبر وأهم من دور البحر الأحمر، وإن كان كل منهما يستمد جزءا أساسيا من قيمته العالمية من الآخر، ولولاه لفقد الجزء الأكبر من تلك القيمة وتحول إلى مجرد بحر داخلي محلي. والواقع أن البحر المتوسط باتساع مساحته وتشعبات حوضه وتوسط موقعه وكثافة تاريخه هو كالמידان، في حين أن البحر الأحمر بضيقه وطوله وفقره النسبي هو كالشارع الجانبى، الأول حلبة والثانى مجرد طريق. أو قل بالتقريب إن الأول أشبه في مصر نفسها بالدلتا الفسيحة اتساعا وغنى ودورا، والثانى أشبه بشق الصعيد الخلقى المحدود المساحة والثقل، ومصر تقع فى نقطة الارتكاز المحورية بين الأولين وتستمد من ذلك أهميتها العظمى مثلما تقع القاهرة بين الأخيرين بكل ميزاتها المترتبة. أو إن شئت تشبيها جغرافيا تصاعديا آخر، فالمتوسط بالنسبة للأحمر مساحة وأهمية هو كصحرائه المصاقلية الغربية بالنسبة لصحرائه الشرقية المتاخمة، أو كمحيطه الأطلسى الأب بالنسبة لمحيطه الهندى الأصل قارن فى النهاية أيضا بين دور ومكانة

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

كل من الاسكندرية والسويس عبر التاريخ وفي الوقت الحالى لتختزل
كل المقارنة بين البحرين في نقطة فلكتهما تتناسب مع أهمية بحرهما
وتكاد تلخص وزنه النسبي .

كل هذا يفسر لنا كيف أن البحر المتوسط يعد أساسى من أبعادنا
الفعالة .

في حين لا يتطرق الفكر أصلا إلى إثارة السؤال عن البحر الأحمر
قط . فالبحر الأحمر كل ما يمكن أن يقال هو أنه بحر هام فى التاريخ
والسياسة والاستراتيجية . أما المتوسط فقد لا يكون أكثر من بحر قارى
جغرافيا، لكنه تاريخيا بحر البحار أو شبه محيط بل ربما أكثر من
محيط، إنه وحده البحر - المحيط ، ولا يفوقه من محيطات الأرض
الحقيقية أهمية فى التاريخ إلا الأطلسى وحده .

ورغم هذا الفارق العظيم فى الأهمية النسبية والدور الطبيعى
التاريخى ، وكذلك رغم التكامل الأساسى بينهما فى أبعادنا البحرية ،
فإن العلاقة بين البحرين قد لا تخلو بالضرورة من قدر من التنافس
والشد والجذب عبر العصور المختلفة والمتعاقبة . فكما كان هناك على
المستوى الاقليمى الخارجى توازن تنافسى بين البحر الأحمر وموانئه

المصرية في كفة وبين الخليج الفارسي وموانئه العراقية في الكفة الأخرى خلال العصور الوسطى الإسلامية ، كانت هناك توازنات مرحلية على المستوى المحلي الداخلي بين بحرنا الشرقي وموانئ الأحمر في جانب وبين بحرنا الشمالي وموانئنا المتوسطية في الجانب الآخر .

ولعل السبق تاريخيا كان للأحمر في الفرعونية المبكرة ، بينما انزلق بكامله إلى المتوسط في العصور الكلاسيكية ، حيث استمر واستقر أيضا في العصر العربي الأول ، إلى أن انزلق مرة أخرى إلى الأحمر أثناء الصليبيات وبسببها . بالمثل بعد كشف الرأس حين دخل البحر المتوسط مرحلة المحاق ، لعل اليد العليا انتقلت إلى البحر الأحمر ، خاصة تحت العثمانية التي نشطت نسبيا في المحيط الهندي . إلا أن قدوم قناة السويس أعاد الثقل المطلق إلى المتوسط ، وأعاد الأحمر إلى مكانه الطبيعي كمساعد ومكمل فقط .

وهكذا على الجملة تبدو ثمة علاقة عكسية إلى حد معين بين البحرين لاتعكسها كما تعكسها منافسات موانئهما خاصة دمياط ورشيد والاسكندرية والسويس أيام ابن جبير ، بينما طفرت الأخيرة واندثرت الأولى في أخريات العثمانية وأيام الحملة الفرنسية . ولكن بعد ذلك منذ

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

محمد على ولكن بالأخص منذ قناة السويس أصبح القرن التاسع عشر
فالقرن العشرون قرن الاسكندرية والبحر المتوسط خارج كل مقارنة .
أما إلى أى مدى يمكن أن نتصور القرن الحادى والعشرين قرن
السويس والبحر الأحمر ، وذلك بعد أن تحرر العالم الثالث وتقدمت
المداريات وإفريقياسيا والمحيط الهندى على المستوى الخارجى ، وبعد إذ
برزت التنمية والمدن الجديدة وانتقلت أو انتشرت الصناعة على محور
القاهرة - السويس مؤخرًا على المستوى الداخلى ، فليس من السهل التنبؤ
أو التكهن . من ناحية لأن الخطر الاسرائيلى سيحد كثيرا وطويلا
قيمايبدو من إمكانيات انطلاق السويس . ومن ناحية أخرى فحتى لو
استبعدنا هذا الخطر ، فسوف يظل الثقل الطاغى للاسكندرية والمتوسط
خارج كل حدود . إن تفوق المتوسط على الأحمر ، لابد أن نقرر ، هو
من معطيات الجغرافيا التى تقع خارج حدود التاريخ وغير .

مصر فى البحرين

إذا كان هذا هو تفوق دور البحر المتوسط المطلق فى التوجيه المصرى ، فلنذكر مع ذلك ، ودون تناقض أو غرابة ، أن دور مصر نفسها فى البحر أكبر نسبيا من دورها فى البحر المتوسط ، بمعنى أن هناك دولا أخرى من المطلة على المتوسط لعبت فيه أدوار أكبر من دور مصر ، ولكن مصر بالتأكيد من بين كل البلاد المطلة على البحر الأحمر هى التى لعبت أهم وأخطر دور فيه حتى لقد نقول عنه بحرا مصريا إلى حد ما . إنه « بحرنا » فى معنى أو آخر . وإذا كان البحر يبدو على خرائط اغريقية باسم البحر الارترى فذلك اسم على غير مسمى ، والأصح تسميته بالبحر الفرعونى كما ورد عرضا فى ابن جبير^(١) ، أو بحر السويس كما ورد فى ابن خلدون وهو يتحدث عن قطاع بعيد منه هو مياه سواكن ، أو بحر القلزم كما كان يسمى حينئذ^(٢) .

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٤٤

(٢) مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، ص ٣٤٧ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

كذلك يختلف ثقل مصر السكاني أو حجمها البشري في المتوسط عنه في الأحمر اختلافا نسبيا مؤثرا . فرغم أن مصر في الماضي القديم كانت كبرى دول حوض المتوسط سكانا ، مثلما هي أكتفها على الدوام ، فإن أولويتها فيه لم تكن قط طاغية إلى حد الاختلاط بل معقولة ومتناسبة مع حجم سكان الحوض الهائل الاتساع .

وعلى أية حال فقد فقدت تلك الأولوية في العصر الحديث لتصبح اليوم رابع دوله عدد سكان ، فضلا عن أنها لم تعد تمثل إلا نسبة متواضعة من مجموع سكان دول الحوض .

على العكس من هذا مصر في البحر الأحمر ، فمصر ، الآن كما في الماضي دائما ، ليست فقط كبرى دول الحوض سكانا ووزنا ، ولكن أولويتها فيه مطلقة إلى طاغية ، وإن ماليت إلى التناقص في الفترة الأخيرة مع نمو سكان سائر دول الحوض نموا سريعا . ففي الماضي القديم إن لم يكن حجمها يرجح مجموع كل بقية دول الحوض رجحانا شديدا ، فقد كانت حتى الأمس القريب تعادلها بالتقريب . ففي أواخر السبعينات مثلا كانت مصر ثلث مجموع سكان الحوض بدوله التسع ، أو ٤٠ مليونا من ١٠٣ ملايين تقريبا . أما إذا قصرنا الحساب على دوله

ألست الأساسية والمباشرة ، ففي سنة ١٩٨٠ كانت مصر ٨١ر٤ مليون
مقابل ٨٦٥ر٨ مليون للخمسة الآخرين .

من هنا نفهم لماذا كان دور مصر الاقليمي ووزنها النسبي،
حضاريا واستراتيجيا ، تاريخيا أو حاليا ، يختلف في البحرين اختلافا
كبيرا . فرغم أنه في المتوسط أضعافه في الأحمر فعلا ، وعلى رغم
ضخامته وخطره المطلق بين أعضائه ، فإنه يظل جزءا من كل ، بينما
أنه في الأحمر يكاد يكون الكل في الكل . ولعل مصر كانت القوة
العسكرية الوحيدة على الاطلاق بمعنى الكلمة في البحر الأحمر طوال
التاريخ .

واليوم فإنها هي أساسا وبلا نزاع محور استراتيجية البحر الأساسية
والبحرية ، والمنوط بها الدفاع عنه قبل أي أحد . وهي وإن لم تكن
صاحبة أطول ساحل على البحر (وإنما السعودية حاليا) ، فإنها طبعا
تملك أخطر ساحل وموقع في البحر جميعا . ولفترة طويلة منذ إسرائيل،
كان يخطط البحر في الاستراتيجية السياسية والعسكرية ، خاصة في
الاستراتيجية البحرية ، محوران قاطعان متقاطعان كسيفي المبارزة :
محور إسرائيل - إثيوبيا ومحور مصر - اليمن الأغلب ، الأغلب بشهادة

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وتجربة حرب أكتوبر حين نجحت البحرية المصرية فى إغلاق البحر
على العدو وحصاره فيه بحريا بعد أن نقلت مفتاح البحر من قطبه
الشمالى إلى قطبه الجنوبى .

مجال مصر البحرى

ومهما يكن ، فإن المجال البحرى لمصر إذ يتحدد بالبحرين ،
الذين يرسمان زاوية متفرجة ، فانه من ثم يأخذ محورا خطيا أساسا .
وهذا الامتداد الخطى يجعله متباينا فى بيئاته المناخية والانتاجية
بحيث يكمل بعضه بعضا . فالبحر المتوسط بحر معتدل ، والأحمر بحر
مدارى . من ثم كان المجال يحمل إلينا من الشمال الحاصلات
المتوسطة والباردة . ومن الجنوب الحاصلات الحارة . ويرتكز هذا
المجال البحرى على ثلاثة محاور أساسية تشكل هيكله من الداخل .
فثمة أولا محور رئيسى إلى غرب البحر المتوسط تتفرع منه فروع
إلى إيجيه والأدرياتى ، ثم محور آخر إلى شرق البحر ... اللقانت -
خاصة الشام ويناظر الطريق الساحلى Via Mare ، وأخيرا محور
جنوبى على طول البحر الأحمر وقديما وعلى المحور الأول كانت تأتى
المعادن : النحاس من قبرص (كلمة النحاس بالانجليزية مشتقة من

تسمية قبرص نفسها) ، الحديد والزئبق من إسبانيا .. الخ ، بينما يصنع المحوران الآخران معا زاوية منفرجة متكاملة اقتصاديا . فعلى الثانى كانت الأخشاب (الأرز) تأتى من لبنان لتبنى السفن ، التى تجلب على الطريق الثالث المر والبخور والعطور من الصومال .

غير أن كثافة التفاعل داخل هذا المجال كانت تضعف وتتضاءل تدريجيا نحو أطرافه ، بحيث يمكن أن نميز فى كل من البحرين ، وبنفس الاقطار تقريبا ، بين ثلاث دوائر متعاقبة وعلى الترتيب التنازلى . ففى البحر المتوسط نبدأ بالدائرة الداخلية وهى منطقة النواة الحقيقية ، وتعنى حوض البحر الشرقى حتى برقة واليونان ، وهو كما نعلم أهم تاريخيا من الغربى لأنه مهد الحضارات . هنا كانت أكثف علاقات مصر البحرية تجاريا وحربيا ، منذ جبيل وقينيقيا وكريت القديمة حتى قبرص المملوكية وكريت محمد على . وهنا دارت أغلب وأخطر معارك مصر البحرية ، منذ أكتيوم إلى ذات الصوارى إلى نفارين إلى أبى قير .

ثم تلى الدائرة الوسطى ، وتتفق مع الحوض الأوسط من البحر حتى الخاصرة ، وقد لعبت هذه الدائرة أهم أدوارها فى العصور الوسطى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

وتجارة الشرق . وفي النهاية تتبقى الدائرة الخارجية ، وتشمل الحوض الغربى تجاه فرنسا وإسبانيا .. الخ ، ومعظم دورها أشد حداثة ويرتبط بالقرون الأخيرة .

أما فى البحر فالدائرة الداخلية تنظم النصف الشمالى منه وترتبط خاصة بأطراف السودان والحجاز ، منذ عيذاب والقصير والحج حتى موانئ عصر قناة السويس . أما الدائرة الوسطى فهى النصف الجنوبى من البحر حتى باب المندب ، وترتبط بتجارة عدن الرومانية وأدوليس التاريخية . وتشمل الدائرة الخارجية سواحل الجنوب العربى والصومال منذ بونت .

وما هنا يبدو وكأن الأولوية التاريخية فى العلاقات تأخذ ترتيبا معكوسا إلى حد كبير ، فأبعدها وأقدمها . علاقتنا مع بونت ، بينما لم تبرز علاقتنا مع شمال الحوض إلا متأخرة نوعا وخاصة منذ الاسلام ، ولعل بعض السبب فى هذا أن القطاع الأكبر من حوض البحر الشمالى صحراء غير منتجة أو غير مختلفة الانتاج ، فى حين لا يبدأ الانتاج المختلف يظهر إلا فى أقصى أطرافه الجنوبية إزاء اليمن وتجاه الصومال . وفى هذا يختلف البحر الأحمر عن المتوسط المأهولة كل سواحله .

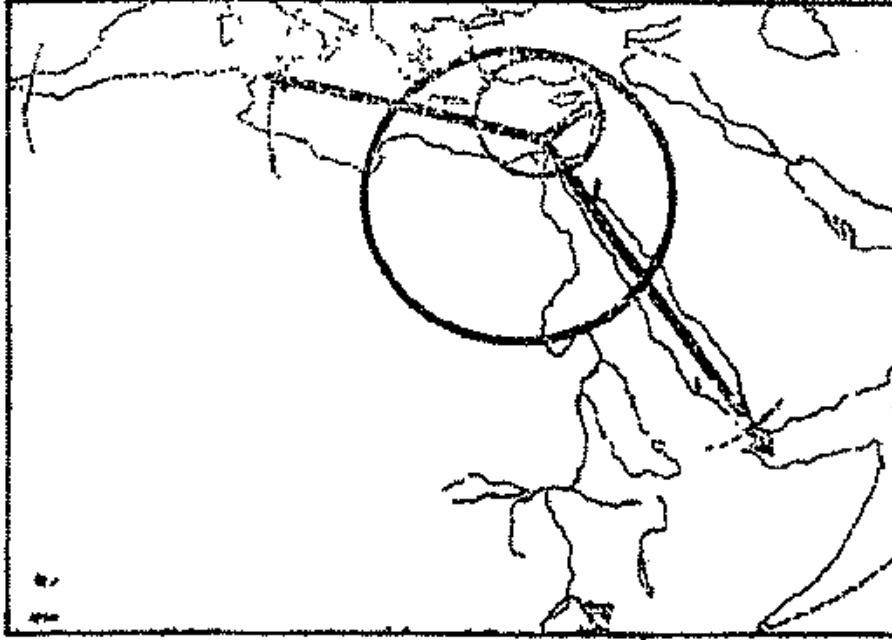
إذا كانت هذه أبعاد مصر البحرية وتفاعلاتها الداخلية ، فكيف تفاعلت في مجموعها مع أبعاد مصر القارية ؟ يفيدنا هنا كثيرا أن نصنف مراحل وفترات تاريخية محددة ، وسيفيدنا أكثر أن نقارن بالجانب الآخر من البحر المتوسط . ومعروف أن التوجيه الجغرافي في أوربا مر تاريخيا بمراحل ثلاث : المرحلة المحلية ، وفيها انطوت على أقاليمها المحلية في حالة كمون وتكون ، فلم تضع قدمها في الماء إلا على السواحل المباشرة بالملاحة الساحلية فقط وفي أضيق الحدود ، ثم المرحلة البحرية ، وفيها نزلت إلى البحر المتوسط أساسا حيث كان المشتل الذي تخرجت فيه وخرجت منه إلى المرحلة الثالثة : وهي المحيطة وتتمثل خاصة في الأطلسي .

فإذا التفتنا إلى مصر وجدنا أيضا مراحل ثلاثاً ، إلا أن أبعادها تختلف جذريا .

في البدء كانت المرحلة المحلية ، التي هي أساسا مرحلة نهريية لم تتعد الملاحة فيها شريط الساحل . ثم تأتي المرحلة البحرية وهي المتوسطية ، وهذه لا تناظر المرحلة الأوربية فحسب بل وتتشابك معها كثيرا ابتداء من العصور القديمة ومرورا بالكلاسيكية وانتهاء بالوسطى .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

فهى إذن المرحلة التى ارتبطنا فيها مع البحر المتوسط ارتباطا خاصا .
ولكن بينما دخلت أوربا المرحلة المحيطية بعد ذلك ، نجد فى مصر
المرحلة القارية . إذ بينما اتجهت الأولى إلى المحيط ، اتجهت مصر مع
العرب إلى القارة ، لاسيما أن المرحلة المحيطية الأوربية نفسها جعلت
البحر المتوسط بركة آسنة بالنسبة إلى مصر والعرب ، فلم يبق إلا أن
يتجه العرب إلى ما بينهم قارياً ، وجاءت العثمانية لتؤكد هذا الاتجاه .
وبذلك تغلب التوجيه القارى كلية على التوجيه البحرى والمحور
العرضى على الطولى وعاد تاريخ مصر ، تاريخاً برى ، .



أبعاد مصر القارية والبحرية . الدائرة الكبرى تمثل مجال تفاعل
وتفوذ مصر القارى ، والصغرى نواة مجالها ونشاطها البحرى . الأقواس تمثل
مجالات الظل وشبه الظل من الأبعاد البحرية .

وإذا نحن أردنا الآن أن نجمع بين أبعاد مصر البحرية . والبرية فى
هيكل واحد لنستشف منه مجال تأثيرها أو تفاعلها التاريخى ، كان
علينا أن نقصر ذلك على قلب تلك الأبعاد أو نواتها الداخلية الصلبة
حيث كثافة الاشعاع على أشدها . لهذا الغرض نرسم دائرة مركزها

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

وقطرهما يماس أطراف اليونان وإيجه والأناضول وأرمينيا والفرات ،
ليشمل الشام وغرب الجزيرة العربية والسودان الشمالى وبرقة .
فذلك مجال التوجيه الطبيعى عموما . فإذا رسمنا داخل هذه الدائرة
دائرة صغرى تماسها فى الشمال لتشمل حوض البحر المتوسط الشرقى ،
فسوف تققطع منها المجال البحرى بالتقريب ، تاركة البقية للمجال
القارى .

الابعاد القارية

دورة التوجيه الجغرافى

فإذا ما التفتنا الآن إلى تفاعل الأبعاد القارية فإن أبرز وأخطر ما
يستلفت انتباهنا هو بلا شك تلك الدورة الدائرية مع عقارب الساعة فى
توجيهنا الخارجى نحو القارات الثلاث عبر التاريخ . فمن البداية ،
ورغم أن مصر فى إفريقيا أرضا ، إلا أن أول توجيه خارجى لها
وعلاقات فعالة كانت مع أوربا عبر المتوسط وغرب آسيا المتوسطة ،

خاصة اليونان هنا والشام هناك . وظل هذان البعدان الأوربي والأسوي
بقطبيهما الاقليميين يتجاذبانها معظم تاريخها القديم الفرعوني ما بين
شد وجذب إلى أن تغلب البعد الأوربي في العصور الكلاسيكية .

فعلاقاتنا الكلاسيكية بأوربا ، أوربا الجنوبية المتوسطية بلغت حدا
وثيقا للغاية لا يمكن المبالغة فيه كما لا ينبغي التقليل منه . والحق أن
مصر بلا أدنى شك كانت تتجه أيام الكلاسيكية والهلنستية والمسيحية
نحو البحر المتوسط بكل ساحله الجنوبي بلا استثناء تقريبا ، وتشابكت
معه في السياسة والصراع والتجارة والحضارة والثقافة والفكر والفن
والدين والعمارة بل والسكان ، وتداخلت مع دوله بشدة بل لقد كان هذا
التوجه حاسما تماما ، وكان من المفروض أن يستمر ويتصاعد . ومع
المسيحية بالذات ، كانت مصر - مع الشام وآسيا الصغرى - تنتهي في
تقدير البعض إلى أوربا قلبا وقالبا . فربما في ذلك الناحية الدينية ربما .
فجأة ، بحدّة ، وجذريا تغير هذا التوجية البحرى الشمالى الأوربي
المحقق مع الاسلام . نحو الشرق تغير ، بينما انقطعت تماما العلاقات
القديمة الوثيقة مع أوربا الجنوبية لثريتها آسيا الغربية أو العربية أو كما

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

يقول صبحى وحيد : « وهكذا تغيرت مصر تغيرا عميقا شاملا بعد الفتح العربى عما كان عليه من قبله ، قصار أبنائها يفكرون بالعربية بعد أن كانوا يكفرون بال « هيروغليفية » أو الاغريقية ويشعرون شعورا اسلاميا لا « فرعونيا ، أو مسيحيا ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر المتوسط » . (١) وبذلك استدار التوجيه من المحور الطولى إلى العرضى ، وانقلبت القبلة السياسية والحضارية والتاريخية والجغرافية فضلا عن الدينية من الشمال إلى الشرق ومن القدس إلى مكة .

وفى ظن البعض ، سواء صح هذا الظن أو شط . أنه لولا الاسلام وهذا الانقطاع الباتر المباغت على المحور الأفقى بين ساحلى البحر المتوسط ، فلربما صارت مصر - مع إفريقيا الشمالية واللغات - جزءا من أوربا ، وأوربا المسيحية بالدقة وإلى الأبد ، بل وربما كذلك من الناحية الجسدية إلى حد ما . وهؤلاء هم أنفسهم الذين يرون أيضا أن

(١) ص ٧١

ذلك الانقطاع هو الذى أحرق أوروبا إلى حد الحقد . فكانت الصليبيات وشيكا ثم روح العداء والتعصب والعنصرية فيما بعد .

ومهما يكن ، فلقد ظل الاتجاه والارتباط بآسيا العربية والشرق الاسلامى منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث فى علاقة حميمة شبه مطلقة ، حين عادت الجاذبية الأوربية من جديد فى صورة مختلفة تماما عن الماضى ، لاسيما فى العقود الأخيرة بعد ثورة التحرير العالمية ، مثلما تشكلت العلاقة الآسيوية هى الأخرى ومن جانبها بشكل جديد مصيرى هو الوحدة العربية . وفى الوقت نفسه ، ولأول مرة ، بدأ يبرز بعد جديد للعلاقات الخارجية هو البعد الأفريقى منذ التحرير . ولأول مرة أصبحت علاقات مصر الأفريقية ذات أهمية لا بأس بها ويحيث أن تقاس تسببا بسائر أبعادها الجوهريّة . لقد أضيف أخيرا آخر أبعادنا ، البعد الرابع .

الآن فإن الحركة الجغرافية فى هذه التوجيهات كلها على امتداد التاريخ كله جد واضحة . مع الكلاسيكية (تأوربت ، مصر إلى حد معين فى توجيهها . ومع الاسلام أسلمت فسلمت نفسها لآسيا ، فتأسيوت ، إلى حد آخر ، وأخيرا جدا فقط وعلى استحياء شديد للغاية

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

، فتأفرقت ، مع بزوغ أو بدوز القارة السوداء . لقد استدار التوجيه الجغرافى عبر التاريخ بزاوية قدرها ١٨٠ درجة كاملة ، مع عقارب الساعة ، من الشمال إلى الشرق إلى الجنوب ، كما لو على قرص دائرى متحرك أو على ، صينية ، دوارة . تلك حركة التاريخ ، وذلك هو التطور التاريخى لنمو أبعادنا القارية الثلاثة .

لا للدوار الجغرافى

داخل هذه الدورة التاريخية ، لم تصب مصر عادة - ولا ينبغي لها قط أن تصاب - « بدوار جغرافى » ، ببساطة لأنها مركز الدائرة وقطب الرحى . وهذه الأبعاد الثلاثة تتعدد فى شخصيتها دون تعارض وتتكامل دون تناقض . ففى عدا الانتماء القومى العربى الذى سنحدد موقعه فى هذه المتواليات الجغرافية بعد قليل ، فنحن مصريون قبل أن نكون إفريقيين أو أسيويين أو أوربيين . ولكننا بعد هذا وإلى حد معلوم أوربيون أكثر منا أسيويين ، وأسيويون أكثر منا إفريقيين . نحن مصريون أساسا ، ولكننا بعد هذا أوربيون أولا ، أسيويون ثانيا ، إفريقيون ثالثا . فنحن فى إفريقيا ولسنا منها ، ومن أوربا ولسنا فيها ، ولسنا فى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

آسيا ولا منها ولكننا إليها ذلك أننا في أفريقيا بالجغرافيا والأرض إلى
أبعد حد .

ومن أوربا بالجنس والحضارة إلى حد بعيد ، وإلى آسيا بالتاريخ
والثقافة إلى حد آخر .

وبين هذه الأبعاد . فإن مصر وحدها هي الجيروسكوب الراسخ
والبوصلة القائدة ، وبالتالي الفاصل النهائي فمن جهة هناك البعض
الذى يود أن يقذف بها عبر البحر شمالا إلى أوربا ، حيث يوجد أيضا
أولئك الذين يودون أن يدفعوها بأقدامهم إلى أسفل نحو الجنوب عن
الشمال وعن أوربا . وفي الوقت نفسه ، وعلى الجانب الآخر . فإن هناك
من يحاول أن يجذبها من أقدامها إلى الجنوب .

إلى إفريقيا . وعلى أية حال ، فإن هناك دائما وبوفرة من هم على
استعداد لأن يساعدوها ، إلى أسفل ، ، أيا كان الاتجاه . ولكنها هي
وحدها التي تعرف ، أو ينبغي أن تعرف ، طريقها جيدا كما تعرف
مصلحتها دون حيرة أو تمزق بين هذه الاتجاهات والضغوط .

والسؤال هو : كيف ؟ بأي بوصلة تسترشد مصر بين : شد ود ،
وضغوط هذه الأبعاد المتباينة وتوجيهاتها التي يمكن أحيانا أن تكون

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

متعارضة أو متنافرة ؟ ما هو الجيروسكوب الذى يحفظ على سفينة مصر توازنها فى هذه البحار العالية العاتية التى لامفر من أن تتلاطم من حين إلى آخر ، فيحفظ لجسم مصر الذاتى جوهر شخصيته الصلبة ؟ حسنا ، مفتاح الموقف كله فى كلمة واحدة هو الانتماء ، ضد ، الأبعاد : الانتماء القومى ، ضد ، الأبعاد الاقليمية . أجل ، فمقياس الأشياء جميعا بين أبعادنا الأربعة هو انتماؤنا القومى . أى الجسم والكيان نفسه مقابل وقبل وبعد أبعاده وامتداداته . وبذلك ما يعنى ويرادف العروبة على الفور . فالقومية العربية والانتماء القومى هو وحده الذى يحفظ توازننا بين أبعادنا المتباينة ويمنع عنا الاصابة بالدوار الجغرافية بينها . باختصار ، الانتماء القومى والقومية قبل الأبعاد وبعدها وبين الأبعاد وضدها - ذلك هو المصل الطبيعى المضاد لخطر الدوار الجغرافى فى قلب العالم .

لكنه أيضا هو القانون الحديدى الذى لافكاك لمصر منه وإلافانه الضياع بعد الدوار ، فالسقوط بعد الضياع . فالموت بعد السقوط . وذلك بالفعل هو الجانب الآخر ولكن الحتمى من الصورة ، ظل الصورة . ومن أسف هذا القانون قد وضع موضع التجربة العملية فعلا وتعرضت

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

مصر لاختيار أحماض قاس ومزير بعد جريمة الركوع والاستسلام للعدو
منذ عقد الخيانة .

فمنذ أخرجت مصر مهزومة مكسورة من الصراع ، ، وأقبلت أو
استقالت ، من العروبة . وعزلت أو اعتزلت القومية العربية . فقدت
مصر فجأة كل شيء : فقدت الكيان والمكان والزمان . الهوية والذات
والانتماء . الاتجاه والبوصلة والخطة ولاستراتيجية . دخلت مرحلة
انعدام الوزن وفقدان الاتجاه وضياح الجاذبية .

وتردت إلى دوامة التيه حتى أصبحت تدور حول نفسها في فراغ
سياسي مخيف وفي حلقة مفرغة تتخبط فيها مترنحة بين أبعادها
الأربعة على غير هدى . عشوائيا ، ارتجالا ، وبلا دليل أو هدف
لاتعرف ماذا تريد بالضبط ولا إلى أين تذهب .

خذ مثلا ودليلا سلسلة التحولات والتحويلات المبالغية الرعناء
والمتناقضة البلهاء .

التي تتحدى الحصر كما والعقل كيف ، في سياستنا الخارجية خلال
السنوات القليلة الأخيرة الرديئة : من أقصى الشرق والسوقيت إلى أقصى
الغرب وأمريكا ، من عدم الانحياز إلى ، العلاقة الخاصة ، ، من

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

إفري قاسيا إلى أوروبا الغربية . من الشقيق إلى العدو ومن العدو إلى
الصديق ، وبين العرب من السعودية تارة إلى ليبيا تارة أخرى ،
والعكس ، ومن سوريا مرة إلى العراق مرة أخرى ، والعكس ، ومن
المقاومة الفلسطينية إلى جبهة التحرير الفلسطينية ، ثم بالعكس ، ومن
الجميع أخيرا إلى السودان وعمان وعمان في آخر الزمان... الخ .

فكر أيضا في تناقضات المواقف التي برزت فجأة بعد فقدان
الاتجاه الذاتي ففي كثير جدا من القضايا الدولية في عالمنا المعاصر أو
المصارع ، أصبح هناك تقليديا عدوان متلازمان أو متزاملان أبدا ،
لاستطيع أن تصادف أحدهما إلا وتخسر الآخر . فعدا التناقض الأعظم
على القمة بالطبع أمريكا × روسيا ، هناك الآن روسيا × الصين ×
الهند × باكستان ، إيران × العراق ، العراق × سوريا ، السودان × ليبيا ،
ليبيا × تشاد ، تركيا × اليونان (قبرص) ، إثيوبيا × الصومال ، الجزائر ×
المغرب (الصحراء) ... الخ .

ففي معظم هذه الصراعات والنزاعات هناك أكثر من اتجاه أو
تيار ، أو قلنقل الآن بعد من أبعادها ، يشد مصر مع أو ضد هذا الموقف أو
الطرف أو ذاك .

فتتصادم هي وتتعثّر بين صميم أبعادها ، فتتناقض في مواقفها ،
فتتمزق في سياستها .

والنتيجة ؟ النتيجة الحتمية والمحقة أنه منذ فرض عليها الركوع ،
وبالنألى التكوّص عن انتمائها القومى ، أصبحت سياسة مصر الخارجية
بوضوح مؤلم ممزقة بين أبعادها الأربعة بشكل بائس محزن مثلما هو
مخز . فلم تكن مصرفط هلامية ولا خلاسية ، بلا شخصية ولا هوية ،
مثلما هي اليوم ، سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا ، دوليا أو إقليميا أو
محليا .

فمن الواضح تماما أن سياسة مصر الخارجية أصبحت مجرد كومة
من ركام وحطام وأنقاض . بل لم يعد لمصر سياسة خارجية حقيقية
بمعنى الكلمة تقريبا : لاسياسة عربية إلا أن تكون الافلاس السياسى
التام ، لاسياسة أسيوية تقريبا ، بينما سياستها الافريقية تحت الصفر
عمليا ... الخ . ومن الواضح أيضا أن تعدد الأبعاد الجغرافى لا ينبغى أن
يتحول إلى انتهازية سياسة فاقعة أكثر مما ينبغى أن يتردى إلى دوار
جغرافى أو حيرة اقليمية .

ليس ذلك ، دعنا نبادر فنقرر ، لأنها اختارت الجغرافيا قبل

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

القومية ، ولكن بالدقة والتحديد لأنها تخلت عن الجغرافيا قبل
القومية ، وخانت الجغرافيا كالقومية .

لقد أصيبت مصر ، أخيرا ، بالدوار الجغرافى فعلا ، لا لشيء سوى
أنها خانت جوهر شخصية مصر : انتماء جسم مصر : الانتماء القومى :
العروبة .

على أن الواضح الآن تماما ، بعد أن راحت السكره وجاءت
الفكرة ، أن هذه الانحرافة المعيبة ، وإن كانت بلا ريب النقطة
السوداء الكبرى فى تاريخ مصر جميعا والتي لن تمحى للأسف من
سجله قط ، هذه الانحرافة لا تعدو أن تكون محض شذوذ تاريخى عابر
عارض يقع خارج التاريخ وسيسقط منه ، مثلما كانت فعلا مختلا
مخبولا غير عقلانى . ولا يشك عاقل أن هذه الانحرافة السفهية محكوم
عليها مسبقا ، وأنها إلى زوال وشيك ، لالشيء سوى أنها ببساطة ضد
الطبيعة . ضد الجغرافيا ، ضد شخصية مصر .

على أن هذا كله أدخل بالطبع فى موضوع الانتماء القومى وباب
القومية والوطنية أو مصر والعرب . وإنما حسبنا هذا ، فى ظل هذا
الدرس القاسى ولكن أيضا وأشبه لمصر فى هذا البعد أو ذاك أو فى هذا
الاتجاه الاقليمى أو ذاك . ولقد يكون بعض هذا التشابه جزئيا للغاية ، أو
سطحيا نوعا ، أو حتى شكليا فحسب وبالتالي مضللا إلى حد أو آخر .

دكتور جمال حمدان نحن ...

وأبعادنا الأربعة

ولكن من المفيد كما هو من الضروري مع ذلك أن نضع مصر بين تلك الحالات بين تلك الحالات والنماذج موضع المقارنة ، تأكيداً وتجسيدا لشخصيتها الكامنة وسيرا وتعميقا لأبعادها الحقة .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

الفصل السادس

بعض النظائر الجغرافية

مصر والروسيا

فإذا بدأنا على المستوى القارى ، فإن الخطأ ابتداء أن نتصور العلاقة بين البعدين الأفريقيين والآسيوي لمصر التاريخية أو المعاصرة على النحو الذى يحاول البعض أن يصور العلاقة بين البعدين الآسيوي والأوربي للروسيا القيصرية مثلا . صحيح أن بين مصر والروسيا بعض مشابهاة أكثر من عابرة . فكل منهما الأخت الكبرى فى عالم قومي كبير ، العروبة والسلافية . وكل منهما تعرض لضغوط متعارضة بين المحلية والتغريب ، وكل منهما نمت لنفسه ميناء - نافذة حديثة على

الغرب على يد أوتوقراطية على شبه معاصر ، وصحيح أن مصر هي أكثر أجزاء إفريقيا أسيوية وأقلها إفريقية ، يمثل ما أن روسيا أكثر أوربا أسيوية وأقلها أوربية^(١) . غير أن ازواج الشخصية الذي ينسب إلى روسيا لا يصدق على مصر . فقد كانت روسيا تتجه بكليتها إلى جانبها الأسيوي حين كانت تلقى رفضا أو هزيمة أو صدا في أوربا والعكس^(٢) ، كما كانت تبدو دائما أسيوية للأوربيين وأوربية للأسيويين كما وضعها دوستوفسكى .

أما الأبعاد الإفريقية والأسيوية بالنسبة لمصر فليست متناورة أو تكتيكا سياسيا ، بل هي عناصر أصيلة في كيائها الحضارى والتاريخى . فلا هي تبدو إفريقية في نظر الأسيويين ولا أسيوية في نظر الإفريقين ، لا ولا هو صحيح أن مصر في السنوات الأخيرة لم تتجه وجهتها الإفريقية القوية بوضوح إلا بعد أن لاقت المتاعب في المشرق

(1) Shiroshi nasu, in : population Lectures on the Harris Foundation.
Chicago, 1930 . p. 176

(2) G.B.Cressey. Asia's lands and peoles .p. 243-8

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

العربى وحدثت الردة الانفصالية فى سوريا أو خلافات العرب بعد أكتوبر . وليس صحيحا أكثر أنها فى الماضى ما كانت تتجه إلى إثيوبيا والسودان والنوبة والنيل إلا حين تصادف هزيمة عسكرية فى الشمال وغرب آسيا . لا وليس صحيحا بالضبط كذلك أن الاتجاه جنوبا كان يعاصر مع فترات ضعفها أو انحدارها وتخلفها أو أنه كان بمثابة خطوة إلى الوراء تماما .

مصر وتركيا

وبين تركيا - كذلك - مشابهاة على السطح قد تغرى بالمقارنة . فتركيا جسر بين آسيا وأوربا يمثل ما أن مصر جسر بين آسيا وإفريقيا . بل إن الجسم الأكبر فى كل منهما يقع فى قارة ، بينما لا يقع فى القارة الأخرى إلا قطاع صغير ، سيناء وتراقيا على الترتيب . وفى كلتا الحالين إنما يفصل بينهما ممر مائى عالمى خطير . أضف إلى ذلك التناظر القريب والملح فى حجم السكان . ولقد تمددت تركيا فى أوربا حتى قبيبا كما وصلت مصر إلى البحيرات فى إفريقيا ، واندفعت كل منهما فى آسيا من الناحية الأخرى . ولكن كل هذا تشابه ثانوى لأنه سطحى ، وسطحى لأنه جزئى .

فربما ليس أكثر من تركيا نقيضا تاريخيا وحضاريا لمصر .
هي بلا تاريخ : بل بلا جذور جغرافية ، انتزعت من الاستبس كقوة
« شيطانية » ، مترحلة ، واتخذت لنفسها من الأناضول وطنا بالتبني . وبلا
حضارة هي ، بل كانت طفيلة حضارية خلاسية استعارت
حتى كتابتها من العرب . ولكن أهم من ذلك تمثل قمة الضياع
الحضارى والجغرافى ، غيرت جلدها وكيانها أكثر من مرة : الشكل
العربى استعارته ثم بدلته بالشكل اللاتينى ، والمظهر الحضارى الأسوى
نبذته وادعت الوجهة الأوربية . ولعلها بين الدول ، كما قيل ، الدولة
التي تذكر بالغراب يقلد مشية الطاووس . وهى فى كل أولئك النقيض
المباشر لمصر ذات التاريخ العريق والأصالة الذاتية والحضارة الانبثاقية
... الخ .

— فقط لولا تلك النقطة السوداء التى شوهت وجه مصر العربية فى
آخر الزمان ! ذلك أن مصر ، بعد أن انسحبت بالقهر من الصراع
العربى — الاسرائيلى وتم بالخداع تحييدها فيه وانفصالها عن القومية
العربية أو انعزالها عنها ، اتجهت ، ولو فى شبهة غير مؤكدة . ولو مؤقتا
وإلى حين . ولو مرغمة غير واعية ، اتجهت إلى الخط التركى

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبغادنا الأربعة

الوطني ، خط أتاتورك ، أي خط الوطنية المصرية الضيقة المغلقة بعيدا
عن دائرة القومية العربية الواسعة المفتوحة .

فكرد فعل متشنج متهور على تدهور وانهايار أحوالها ومكانتها في
العالم الاسلامي بعد سيادة مطلقة طويلة فيه على شكل الدولة العثمانية
والخلافة والامبراطورية الاسلامية ، انسحبت تركيا الكمالية فجأة من
الاسلامية وأدارت ظهرها للعالم الاسلامي وتخلت عن الامبراطورية
الخلاسية الفضفاضة متجهة إلى العزلة المحلية وإلى الوطنية الشوفينية
الضيقة في صورة « الأناضولية » وتركيا الصغرى ، ثم منها نبذت
أسيويتها وتوجهت صوب أوربا والأوربة ، لتصبح بذلك ذنب أوربا بعد
أن كانت رأس العالم الاسلامي .

بالمثل فعلت مصر السبعينات الراكعة . فبعد زعامة طويلة مطلقة
ودور قيادي مجيد في العالم العربي خاصة في الستينات . ونتيجة
لنكاساتها العسكرية المتكررة في الصراع العربي - الاسرائيلي ، ولكن
أساسا نتيجة انقلابات الثروة غير المعقولة واختلال توازن القوى بين
العرب في عصر البترول الخرافي والمخرب ، تدهورت أحوال مصر
ومكانتها بين العرب إلى قرب الانهايار والافلاس . ولكن بدلا من

استراتيجية حكيمة سديدة لاستقطاب العرب خلفها في الصراع وترشيد الثروة البترولية وتوظيفها باقتدار فيه ، أرغمت مصر في رعونه ونزق أهوج ، بل في سفه انتحاري قاتل ، على أن تعطى ظهرها للعرب وتنسحب من العروبة وتتجه إلى العزلة عن القومية العربية لتقبل العدو قبلة الموت وتلقى بنفسها معه في أحضان الغرب وأوربا الجديدة ، أي أمريكا (الحامية الحانية الحائثة) .

وكما أن تحول تركيا عن الشرق الاسلامي والاتجاه إلى الغرب الأوربي تم بعد مراحل طويلة للغاية من لعبة توازن ومضاربة القوى العظمى ببعضها البعض لتحافظ هي على كيانها المتآكل ، فكذلك تم تحويل مصر عن العالم العربي إلى العالم الغربي بعد لعبة توازن ومضاربة قوى مارسستها حديثا بين الغرب والشرق أو أمريكا والروسيا ، ولكن دون جدوى أيضا للأسف .

كذلك فكما أن عزلة تركيا اتجهت إلى الأناضولية الضيقة لا « الطورانية ، الآسيوية الواسعة . بالاضافة أصلا إلى الأوربية والتغريب ، فإن العزلة المصرية الجديدة لم تستطيع أن تتخذ علنا شكل العودة إلى الماضي أي الفرعونية الضيقة . وإنما غلفتها بقشرة سكرية من اتجاهات

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأيعادنا الأربعة

التنمية ، وتكنولوجيا العصر، والتحضير ... الخ .

أيضا فلقد تمت العملية الجراحية المميتة في الحالتين بالارهاب
المسلح وبقوة الحديد والنار السافرة ، على شعب مروع مخدوع . رافض
مع ذلك علنا وبالأجماع وذلك على يد نظام عسكرى انقلابى باطش
ضار حاقد بقدر ما هو جاهل عاجز فاشل . كلا التحويلين ، لذلك ، ليس
إلا نزوة السفه الحاكم وحده ، ولا يعبر عن إرادة الشعب أو مصلحته
إطلاقا . وإنما تم غصبا وبالقهر وضد إرادته . لذا فإنه ولد ميتا في
الحقيقة ومحكوما عليه بالاعدام سلفا ، حيث عاد الشعب التركى كأمر
واقع إلى إسلاميته وشرقيته بالتدريج ، بينما عاد الشعب المصرى إلى
أشقائه وقوميته بسرعة خاطفة ، هذا إن كان قد ابتعد عنها لحظة على
الاطلاق . وكما شعرت تركيا بالضياع السياسى والاغتراب القومى
والحنين إلى الماضى لفترة طويلة ، سرعان ما شعرت مصر فى قراراتها
بالندم والأسف والخطأ .

الفارق الأساسى بين الخطأين والخطيئتين هو ، للأسف بالطبع .
أن تركيا خرجت من ماضيتها من موضع القوة على أية حال ، منتصرة
عسكريا ، وبكامل كرامتها وعزتها الوطنية كما تصورتها على الأقل ،

وفى النهاية مرهوبة مرغوبة من العدو والصديق . أما مصر فقد أخرجت من الصراع على أساس لاشبهة فيه ، وهو فرض إرادة العدو وأهدافه كاملة ، أى على أساس استسلام الإرادة المصرية للإرادة المعادية كأمر واقع ، وبالتالي فقد خرجت من موضع الهزيمة والانكسار والاستسلام موضوعا ، بلا شك ولا جدال وإن يكن بشرط ويقيد شكلا .

الحزاء ، بالطبع ، هو أن الانحراف تحولت فى مهدها وبأسرع مما توهم مهندسيها أو مقاوليها أو عميلها إلى كومة بائسة دنسة من الانقراض والأطلال كما هو واضح اليوم تماما لكل ذى عينين ولو معصوبتين .

وليس سرا ولا كشفا جديدا أنها الآن قيد إزالة الانقراض ، بما فيها الجثة المتعفنة . استعدادا لاستخراج تصريح الدفن . وفى الجغرافيا ، كما فى الحياة ، بل فى الحياة بحكم الجغرافيا ، لا يصح إلا الصحيح ، .

مصر وبريطانيا

بعد تركيا ، ربما انصرف الذهن لثالث وهلة إلى بريطانيا بموقفها بين أوربا والكومنولث : فهى موقعا جزيرة - أرخبيل - على ضلوع أوربا، بمثل ما أن مصر جزيرة صحراوية على مشارف إفريقيا .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

كلتاها في القارة وليست منها ، وكلتاها من ثم امتازت بقدر ما من
عزلة خفيفة محيية أو مستحبة . والاثنتان كذلك تعرضتا لكثير من
موجات الغزو و/ أو الهجرة ، وذلك أيضا من مدخل أساسي واحد
شرقي في الحالتين . رغم أن موقع الواحدة نهائي في كتلة اليابس
وموقع الأخرى مركزي كل المركزية .

وعلى ذكر الموقع ، فرغم أنهما كانتا طرفي النقيض تماما في
القديم ، فقد تبادلتا مواقعهما تماما منذ الكشف الجغرافية حين انتقلت
بريطانيا من هامش العالم إلى قلبه ومصر من قلبه إلى هامشه . بل إن
الأولى هي بالدقة التي ورثت موقع الثانية بالتحديد . ثم أن امتدادات
بريطانيا بعد هذا تقع خارج القارة إلى الكومونولث ، كما تتعدى مصر
إفريقيتهما إلى آفاق العالم العربي .

وفيما عدا هذا وذاك . فمصر هي مهد الزراعة والثورة الزراعية
في التاريخ القديم ، حيث قدر لبريطانيا أن تكون مهد الصناعة
والانقلاب الصناعي في العصر الحديث . فكانت كلتاها بداية عصر
في تاريخ البشرية وميلاد حضارة عالمية برمتها كاملة . ولنا نريد بعد
ذلك أن نتتبع المقابلة إلى عنصر الاستمرارية والمحافظة الذي عرفته

كل منهما ، ودعك من قضية الاستمرارية ضد الإنقطاع المتماثلة في
الأثنتين حيث نجد قصة الفرعونية - العروبة في مصر ومناظرة
الكلتية - السكسونية في بريطانيا .

لا ، ولن نكرر كيف أن كليهما أكثف وحدات قارتها سكانا وأسبقها
إلى الثورة الديموغرافية الحديثة ، مثلما هي أقدمها سياسيا وكانت لها
الصدارة فيها لفترة أو لأخرى . ولكن الشيء الهام أن حيرة بريطانيا
وتذبذبها بين القارة والكمونولت (غير المنظور) لا مثيل لها في حالة
مصر التي لا تجد تعارضا أو انفصاما بين بعديها الحيويين .

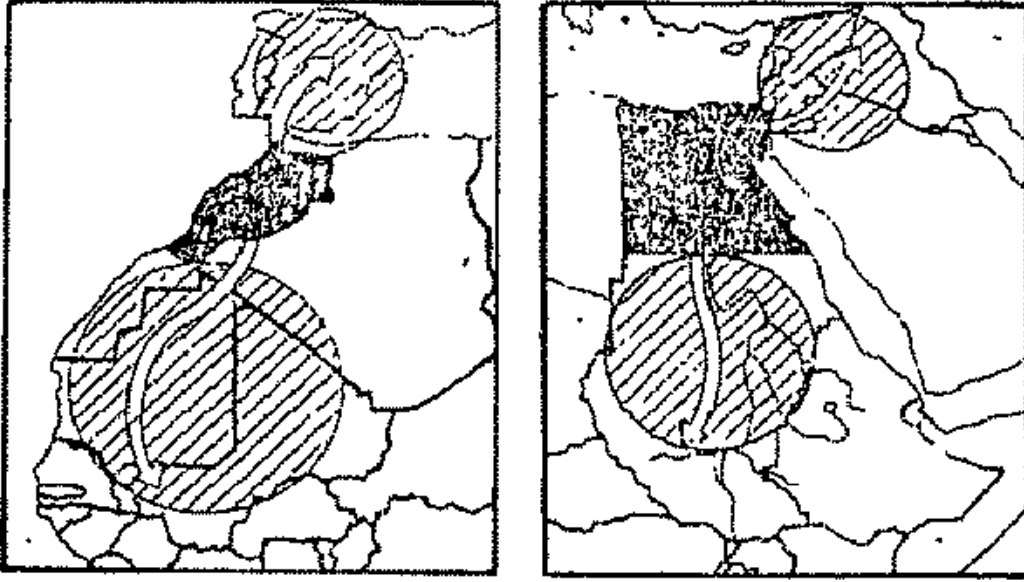
مصر والمغرب

ولعل أقرب تشبيه إلى ثنائية الأبعاد المصرية هو المثل المراكشي .
فكل من مصر والمغرب الأقصى (مراكش) يتناظر في موقع الركن
والزاوية في إفريقيا ، ومن ثم في دور المحط وقاعدة الاحتشاد
والتوزيع . فكان لكل منهما توجيه جغرافي مزدوج عبر التاريخ : مصر
شمالا إلى الشام وآسيا وجنوبا إلى السودان وحوض النيل وشرق إفريقيا ،
ومراكش شمالا إلى إسبانيا وجنوبا إلى « شنقيط » (موريتانيا) وغرب

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

إفريقيا . مصر حلقة الوصل بين إفريقيا وآسيا ، ومراكش حلقة الوصل بين إفريقيا وأوروبا . غير أن البعد الشمالى الأوربى لمراكش ، بعد أن كان « المغرب الأوربى » بكل معنى ، لم يلبث أن بتر تماما ، بعكس نظيره المصرى . وقد كان هذا مما نقل مركز الثقل إلى البعد الجنوبى نهائيا فى حالة مراكش ، بينما ظل نظيره المصرى مهملًا أو ضعيفا .

وفيما عدا النيل ، فموريتانيا بالنسبة للمغرب هى إلى حد بعيد كالسودان بالنسبة لمصر ، إلا أن السودان أعظم مساحة وامتداد للغاية ، ومن ثم يتألف من ثلاثية الصحراء - السفانا - الغابات . فى حين تكاد موريتانيا تقتصر على الصحراء ولا تظفر من السفانا إلا بالكاد بشريحة متواضعة للغاية . حتى السكان فى الحالىن انتقالية بين العروبة والزنوجة ، بل إن تسمية السودان فى حوض النيل تكرر تسمية مماثلة فى المغرب حيث لا زال السكان - بحسب الأصل - ما بين « بيضان وسودان » . والمثير بعد هذا فى ذلك المركب المتشابه أن تأتى النوبة المتميزة ولكن المقسمة بين مصر والسودان لتقابل شريط الصحراء (الإسبانية سابقا) التى كانت منفصلة عن كل من المغرب وموريتانيا ثم اقتسمت بينهما حتى قريب .



التناظر التاريخي والجغرافي بين أبعاد مصر والمغرب

على بوابة أفريقيا الشمالية

وكما كانت مصر (الواحة الصحراوية) هي القاعدة البشرية التي
بدأ منها تعريب السودان ، كانت مراكش (الواحة الساحلية المتوسطية)
هي القاعدة البشرية التي بدأ منها تعريب السودان ، كانت مراكش

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

(الواحة الساحلية المتوسطية) هي القاعدة البشرية ، للمرابطين ، في
إسلام وتعريب موريتانيا حتى السنغال - كلمة سنغال تحريف فرنسي
لاسـم الصفة من صنهاجة كبرى القبائل الـبربرية المستعربة في العصور
الوسطى والتي شاركت في الزحف جنوبا . وكما كانت مصر رائدة
النيل ، كانت مراكش سيدة غرب الصحراء الكبرى بلا جدال .

والخلاصة أن دور مصر الثنائي في آسيا وإفريقيا أشبه ما يكون
بدور المغرب الثنائي في أوروبا وإفريقيا . وفي كلتا الحالين كانت هذه
الثنائية أصيلة صحية في كيان الشخصية الإقليمية وليست ، انفصاما ،
مرضيا نتيجة للمضاريات الانتهازية السياسية كما عرفت بلاد أخرى
في الشرق بلاد أخرى في الشرق والغرب . والخلاصة النهائية أن أبعاد
مصر القارية والبحرية ، وإن تجاذبتها مرحليا ، تتداخل في تكامل
وتناسق طبيعيين بلا تعارض أو تضاد كامن ، ولا تشد في اتجاهات
متعارضة أو متعاكسة ، بل تتبلور جميعا في بؤرة واحدة وتؤكد تعدد
الأبعاد والجوانب الكامن في موقع مصر . ومن الناحية الأخرى فإن

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

على مصر ألا تهمل أيا من أبعادها ، كما حدث في بعض مراحل
التاريخ ، وهي على أية حال لا تملك أن تفعل في عالم يزداد انكماشاً
وتداخلاً وتزداد هي فيه توسطاً وخطورة .

الفصل السابع والخلاصة النهائية

وإذا كان لنا في الختام أن نتساءل : أين ، كخلاصة نهائية ، يضعنا تعدد أبعادنا هذا على خريطة العالم المعاصر بشريا وحضاريا ، فإن الرد هو أن مصر تظل في النهاية وأساسا هي مصر وتظل بوصلتها هي المصرية . فمصر ، أرضا وشعبا وحضارة وسكانا ورغم كل الخيوط والخطوط المشتركة التي تربطها بأبعادها القارية ، لا هي إفريقية تماما وإن وقعت فيها ، ولا أسيوية تماما وإن لا صفتها ، ولا أوربية تماما وإن واجهتها . إنها تنتمي إلى كل هذه الآفاق دون أن تكون هناك تماما ، بل تظل في النهاية مصرية تأصيلا وتطويرا وانتماء .

والواقع أن هذه الأبعاد الثلاثة إنما تبدأ على أطراف مصر وتخومها ، فهي مجرد مماسات لجسمها الأساسي ، ومن ثم يبقى صلب هذا الجسم مصرياً بالدرجة الأولى يحدث هذا ويتحقق عن طريق ميكانيزم و / أو نمط أساسي في تكوين مصر وكيانها نعرفه الآن جيداً .
فإذا كان التجانس الطبيعي والبشري هو كما رأينا من أخص خصائصها ، فإن الاختلاف والتباين النسبي أو الثانوي لا يبدأ ولا يبين إلا على أطراف وإطار المربع المصري ، بينما يبقى صلب الرقعة في الداخل كما هو .

ففي شريط الساحل الشمالي الضحل وحده مثلاً نجد المؤثرات المتوسطية مناخاً ونباتاً ، كما تتركز معظم المؤثرات البشرية والحضارية الأوربية قديماً وحديثاً ابتداءً من الاسكندرية ، الملصقة بالساحل المصري ، إلى ارتفاع نسبة الجاليات الأوربية فيها وفي بورسعيد وباقي مدن القناة . وعلى النقيض من هذا التخوم الجنوبية من المربع :
المؤثرات والعلاقات والتشابهات السودانية والأفريقية البادية في نمط الحياة والسكان والحضارة . . . الخ . يقابل هذا التأثيرات والعلاقات

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعادنا الأربعة

والتوجيهات الأسيوية في شرق الدلتا وسيناء والبحر الأحمر ، سواء في البيئة والطبيعة أو السكن والسكان . وهكذا يأخذ كل طرف من مصر بطرف من خصائص أرضه المتاخمة أو المواجهة ويتلون محليا إن قليلا أو كثيرا بلونها ، في حين يظل قلب مصر وجوهرها مصريا أولا وأخيرا^(١) .

من هنا نستطيع أن نعود إلى معادلتنا السابقة عن أبعادنا الثلاثة فنزيدها تحديدا وحصرًا . فإذا كانت مصر تأخذ من كل من القارات الثلاث بطرف بصورة معينة من الخارج ، فلعل لنا أن نقول عن الداخل إن أوربا تبدأ عند الاسكندرية ، آسيا عند القاهرة ، وإفريقيا عند أسوان . بالتالى فإن الدلتا متوسطة - أسيوية أكثر منها إفريقية ، بينما الصعيد منطقة انتقال بين الإفريقية والأسيوية أكثر . وفي هذه التركيبة يكمن بعض تفرد مصر كإقليم بين الأقاليم ، وبها هي كفلته جغرافية قل أن تتكرر بين بلاد العالم .

(١) شخصية مصر ، الجزء الأولى ، ص ٢٨٢ .

دكتور جمال حمدان نحن ...
وأبعدنا الأربعة

رقم الايداع ٩٣٦٧ / ٩٣

I.S.B.N. 977 - 208 - 115 - 6



نحن وأبعادنا الأربعة

كتب جمال حمدان هذه الدراسة «نحن وأبعادنا الأربعة» فى أوائل السبعينات ، وألحق بها ترجمته وافية غير حرفية باللغة الانجليزية لكى تنشر فى البلدان الناطقة باللغة الانجليزية ، ولكى يستفيد بها طلبة العلم والباحثون والدارسون لمصر من العرب والأجانب .

وقد تناول الدكتور حمدان فى هذه الدراسة أبعاد مصر الأربعة : البعد الآسيوى ، والبعد الأفريقى ، والبعد النيلى ، والبعد المتوسطى . ثم تكلم عن تفاعل هذه الأبعاد البحرية والقارية ، وأورد بعض النظائر الجغرافية . ثم خلص إلى أنه رغم تعدد أبعادنا على خريطة العالم المعاصر ، بشريا وحضاريا ، فإن مصر تظل فى النهاية وأساسا هى مصر ، وتظل بوصلتها هى المصرية .

الناشر

مكتبة مدبولى

To: www.al-mostafa.com